ر



وَقَفَتْ عِدَّةُ سَيّاراتٍ فَوقَ الـجِسرِ العابِرِ لِلنَّهرِ، اصطَفَّتْ عَلى مَسافاتٍ مُتَباعِدَةٍ حِذاءَ رَصيفٍ جانِبيٍّ. بِغَيرِ اتِّفاقٍ، نَزَلَ سائِقو السَّيّاراتِ تِباعًا رِجالًا وَنِساءً. اعْتَلَوُا الرَّصيفَ بِخُطُواتٍ مُتَثاقِلَةٍ، رَمَقوا النَّهرَ الـمُمتَدَّ أَسفَلَهُم بِنَظَراتٍ خاوِيَةٍ. ظَلّوا عَلى هذا الوَضْعِ زَمَنًا غَيرَ طَويلٍ، قَبلَ أَن يَبْدَؤوا تِباعًا، وَبِغَيرِ اتِّفاقٍ بِإِلْقاءِ أَنفُسِهِم مِن فَوقِ الـجِسرِ...

مِنَ ارتِفاعِ ثَلاثينَ مِترًا.

* * *

إِحْدى مَحَطّاتِ الـمِتْرو، مِن داخِلِها يَنبَعِثُ ضَجيجٌ وَصَخَبٌ هادِرٌ، مَنْ يَمُرُّ بِالـجِوارِ يَظُنُّها لِوَهْلَةٍ مَلعَبَ كُرَةِ قَدَمٍ، لا مَحَطَّةَ مِتْرو. لَم تَمُرَّ دَقائِقُ حَتّى أَتَتْ سَيّاراتٌ مُصَفَّحَةٌ مَوْسومَةٌ بِشِعارِ مُكافَحَةِ الشَّغَبِ هَبَطَ مِنها جُنودٌ مُدَجَّجونَ، انْدَفَعوا في تَشْكيلاتٍ مُنتَظِمَةٍ، وَحَرَكَةٍ مَدروسَةٍ إِلى داخِلِ الـمَحَطَّةِ.

ما إِنْ دَخَلَ الـجُنودُ، حَتّى اتَّسَعَتْ أَعيُنُهُم إِلى آخِرِها.

كانَ كُلُّ مَنْ بِالـمَحَطَّةِ يَشتَبِكُ مَعَ الآخَرِ في قِتالٍ مَسعورٍ، بِلا حُدودٍ.

في إِحْدى الـمَناطِقِ الرّاقِيَةِ، حَيثُ أَحَدُ الـمَطاعِمِ ذاتِ العَلاماتِ التِّجارِيَّةِ الشَّهيرَةِ، في الدّاخِلِ، وَقَفَ مُديرُ الصّالَةِ يَنظُرُ لِلمَوائِدِ في مَزيجٍ مِنَ التَّوَتُّرِ وَالـحَيْرَةِ. الـمَوائِدُ مُتْخَمَةٌ أَمامَ الزَّبائِنِ، أَطباقٌ وَأَطباقٌ تَحتَوي على شَطائِرِ لَحمٍ مُتَبايِنَةٍ. أَفواهُ الزَّبائِنِ لا تَكُفُّ عَن مَضْغِ الطَّعامِ، وُجوهُهُم مُحْتَقِنَةٌ، نَظَراتُهُم زائِغَةٌ، شارِدَةٌ، يَتَفَصَّدُ العَرَقُ مِن كُلِّ جُزءٍ فيهِم، وَمَعَ ذلِكَ ما إِنْ يَنتَهي ما في أَيديهِم حَتّى يَدُسّوا بِأَفواهِهِم ما يَحُلُّ مَحَلَّهُ.

كانَتْ مَسأَلَةَ وَقتٍ قَبلَ أَن يَتَساقَطوا، واحِدًا تِلْوَ آخَرَ، ما بَينَ حالاتِ قَيءٍ عارِمٍ، وَفُقدانٍ لِلوَعْيِ.

تَوافَدَتْ سَيّاراتُ الإِسعافِ، لِيُشَكِّلَ نَفيرُها الـمُمَيِّزُ سيمفونيَّةً جَماعيَّةً تُدَوّي في الشّارِعِ الرّاقي.

* * *



"ضَحايا"

انْهَمَكَتْ صَبيَّةٌ في الرّابِعَةَ عَشْرَةَ مِن عُمْرِها، في التَّنَقُّلِ بَينَ تَقاريرَ إخباريَّةٍ، اكتَسَحَتْ مِنَصّاتِ التَّواصُلِ الاجتِماعيِّ، في الأَيّامِ الأَخيرَةِ. تَغَضَّنَ جَبينُها وَهِيَ تَقرَأُ التَّحليلاتِ في التَّعليقاتِ، دَمْدَمَتْ: "ما هذِهِ السَّذاجَةُ؟!".

الْتَفَتَتْ إلَيها والِدَتُها: "هَل قُلتِ شَيئًا يا نَيْروزُ؟".

طَوَّحَتْ نَيْروزُ بِهاتِفِها النَّقّالِ فَوقَ الأَريكَةِ الطَّويلَةِ الَّتي تَجلِسُ عَلَيها وَقالَتْ مُتَبَرِّمَةً: "الكُلُّ يُدْلي بِدَلْوِهِ في السُّلوكِ الجَماعيِّ الغَريبِ لِلنّاسِ في الفَترَةِ الأَخيرَةِ، الكُلُّ يُفْتي، لا أَحَدَ يَتَحَدَّثُ عَن تَخَصُّصٍ!".

أَغلَقَتْ والِدَتُها كِتابًا بِاللُّغَةِ الإنجليزيَّةِ، انعَكَسَ ضَوءُ الثُّرَيّا عَلى العُنوانِ الذَّهَبيِّ البارِزِ لِلكِتابِ: (الشَّبَكاتُ العَصَبيَّةُ)، وَهِيَ تَقولُ: "أَنا شَخصيًّا- كَوني طَبيبَةً مُتَخَصِّصَةً في الطِّبِّ الشَّرعيِّ- وَبَعدَما فَحَصتُ ما فَحَصتُ مِن جُثَثِ وَفَياتِ تِلكَ الحالاتِ، لَم أَصِلْ إلى نَتيجَةٍ تُذْكَرُ!".

نَهَضَتْ نَيْروزُ لِتَقِفَ جِوارَ والِدَتِها، وَقالَتْ: "لَطالَما أَلْحَحتُ عَلَيكِ يا ماما أَن أُرافِقَكِ أَثناءِ التَّشريحِ!". ابتَسَمَتْ والِدَتُها بِحُنُوٍّ: "وَدائِمًا أُجيبُكِ الجَوابَ ذاتَهُ؛ هذا غَيرُ مَسموحٍ".

اتَّسَعَتْ عَيْنا ابنَتِها: "الدُّكتورَةُ ديمَةُ، كَبيرَةُ الأَطِبّاءِ الشَّرعيّينَ، غَيرُ مَسموحٍ لَها بِأَيَّةِ استِثناءاتٍ؟!".

"لَم أَكُنْ لِأَكونَ كَبيرَةَ الأَطِبّاءِ، إنْ كُنتُ أَسمَحُ لِنَفْسي بِذلِكَ"، قالَتْ ديمَةُ ثُمَّ تَنَهَّدَتْ: "أَعلَمُ ما يَدورُ عَلى مِنَصّاتِ التَّواصُلِ، الكُلُّ يَزعُمُ أَنَّ سَبَبَ السُّلوكِ الجَماعيِّ لِلضَّحايا يَرجِعُ إلى تَجرِبَةٍ طِبِّيَّةٍ شِرّيرَةٍ ما. لِلأَسَفِ، آثارُ الجائِحَةِ الأَخيرَةِ هُوَ ما وَجَّهَ تَفكيرَهُم لِهذا الاتِّجاهِ الخَياليِّ".

قالَتْ نَيْروزُ وَهِيَ تُعَدِّلُ مِن تَصفيفَةِ شَعرِها: "أَنا كَذلِكَ لا أَميلُ لِنَظَرِيّاتِ المُؤامَرَةِ، وَلكِنّي قَرَأْتُ إفاداتِ المُصابينَ في الصُّحُفِ، مِمَّنْ أَسعَفَهُمُ التَّوفيقُ في وُصولِ النَّجدَةِ الطِّبِّيَّةِ في الوَقتِ المُناسِبِ. ما قالوهُ يُمكِنُ أَن يُلهِمَ مَن هُم ذَوو خَيالٍ خِصْبٍ".

دارَتْ إلَيها والِدَتُها بِكامِلِ جَسَدِها، وَسَأَلَتْ: "كَيفَ؟".

أَجابَتْ نَيْروزُ: "الضَّحايا قالوا أَشياءَ كَثيرَةً، وَلكِنَّ القَواسِمَ المُشتَرَكَةَ بَينَهُم جَديرَةٌ بِلَفْتِ الانتِباهِ"، وَجَعَلَتْ تَعُدُّ عَلى أَصابِعِها: "1- كانَ ذِهنُهُم مُشَوَّشًا. 2- ذاكِرَتُهُم لَم تُسَجِّلْ بِدِقَّةٍ ما جَرى. 3- كانوا يَشعُرونَ بِنَوعٍ مِنَ النَّشوَةِ وَالسَّعادَةِ في أَثناءِ غِيابِ وَعيِهِمُ النِّسبيِّ هذا".

حَمْلَقَتِ الدُّكتورَةُ ديمَةُ في ابنَتِها، انشَغَلَتْ بِالتَّفكيرِ، قالَتْ كَما لَو تُحَدِّثُ نَفسَها: "لَم أُفَكِّرْ في الأَمرِ بِهذِهِ الطَّريقَةِ"، ثُمَّ قالَتْ لِابنَتِها بِتَشَكُّكٍ: "وَلِماذا لا يَكونونَ يَدَّعونَ ذلِكَ، لِلتَّهَرُّبِ مِنَ المَسؤوليَّةِ القانونيَّةِ لِأَفعالِهِم؟".

هَزَّتْ نَيْروزُ رَأسَها: "كانَ سَيَكونُ ذلِكَ وارِدًا، لَوْ لَم تَكُنْ إفاداتُهُم جَماعيَّةً، وَعَلى هذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ التَّقارُبِ". خَلَعَتْ والِدَتُها نَظّارَتَها الطِّبِّيَّةَ. فَرَكَتْ عَينَيْها، ثُمَّ قالَتْ: "حَسَنًا، وَما الَّذي كُنتِ تَقصِدينَهُ بِالخَيالِ الخِصْبِ؟". جَذَبَتْ نَيروزُ كُرسيًّا، وَجَلَسَتْ مُقابِلَها: "قَد يَبدو ما أَقولُهُ جامِحًا، لكِن، إنْ قُمتِ بِبَعضِ التَّحاليلِ لِلضَّحايا، رُبَّما يُكسِبُهُ شَيئًا مِنَ المِصداقيَّةِ".

-أَيَّةُ تَحاليلَ؟

-مُستَوى "الدّوبامين"، "السّيروتونين"، وَ"الغلوبولين المَناعي جي"في الدَّمِ.

رَفَعَتْ والِدَتُها حاجِبَيْها: "مِن أَينَ تَعرِفينَ هذِهِ المُصطَلَحاتِ؟!".

قالَتْ نَيْروزُ بِنَبرَةٍ حانِقَةٍ: "ماما! تَعلَمينَ مَدى شَغَفي بِعِلمِ الأَمراضِ التَّشريحيِّ، أُريدُ أَن أَكونَ مِثلَكِ".

هَزَّتْ ديمَةُ رَأسَها: " لم أَظُنَّكِ تَأخُذينَ حُلْمَكِ بِهذِهِ الجِدِّيَّةِ"، ثُمَّ قالَتْ: "ما الَّذي تَرْمينَ إِلَيهِ؟".

بَدَتْ نَيروزُ كَما لَو سَتَهُمُّ بِالكَلامِ، لكِنَّها أَمسَكَتْ، وَقالَتْ: "لا أُحِبُّ وَصْمي بِالخَرْقاءِ؛ لِذا أَجْري هذِهِ التَّحاليلَ أَوَّلًا، ثُمَّ نَتَحَدَّثُ".

وَسَبَرَتِ الطَّبيبَةُ ابنَتَها بِنَظْرَةٍ طَويلَةٍ.

* * *

دَقَّتْ نَيروزُ ثَلاثَ دَقّاتٍ سَريعَةٍ عَلى بابِ الغُرفَةِ. "ادخُلْ"... نادَتْ ديمَةُ.

أَدارَتْ نَيْروزُ مِقْبَضَ البابِ، وَدَخَلَتْ. وَجَدَتْ والِدَتَها مُنهَمِكَةً في مُطالَعَةِ تَقريرٍ ما، جَلَسَتْ بِالمَقعَدِ المُقابِلِ، كابِحَةً تَساؤلاتِها داخِلَها.

لَيسَ مِن عادَتِها استِدْعاؤها لِمُقابَلَتِها في مَقَرِّ عَمَلِها، تُرى ما السَّبَبُ؟

أَخرَجَها مِن خَواطِرِها صَوتُ أُمِّها: "كَيفَ كانَ تَدريبُكِ اليَومَ؟".

غَمغَمَتْ نَيْروزُ: "أُحِبُّ المُلاكَمَةَ في حَدِّ ذاتِها، لكِنَّ تَمريناتِ الإِحْماءِ الَّتي تَسبِقُها مُرهِقَةٌ لِدَرَجَةٍ تُؤَثِّرُ عَلى التَّمرينِ ذاتِهِ!".

هَزَّتِ الدُّكتورَةُ ديمَةُ رَأسَها، وَهِيَ تَتَناوَلُ تَقريرًا، نَظَرَتْ إِلَيهِ مَرَّةً أُخرى وَكَأَنَّما تَستَوثِقُ مِنَ النَّتائِجِ، ثُمَّ قالَتْ: "عَمِلتُ بِفِكرَتِكِ، وَهذِهِ نَتائِجُ التَّحاليلِ".

تَوَهَّجَ وَجهُ نَيْروزَ شَغَفًا، أَصغَتْ إِلى والِدَتِها، الَّتي أَردَفَتْ: "النَّتائِجُ إِيجابيَّةٌ، وَجَميعُها بِنِسَبٍ عالِيَةٍ جِدًّا".

لَمَعَتْ نَظَراتُ ابنَتِها، لاذَتْ بِالصَّمتِ، فَقالَتِ الأُمُّ: "الآنَ، ماذا كانَتْ فِكرَتُكِ؟".

ازدَرَدَتْ نَيْروزُ ريقَها، ثُمَّ قالَتْ: "سُلوكُ الانتِحارِ غَيرُ المُبَرَّرِ، أَلا تَجِدينَ فيهِ تَشابُهًا مَعَ سُلوكِ النَّمْلِ في الغاباتِ المَداريَّةِ المَطيرَةِ؟ وَكَذلِكَ مَعَ حَشَرَةِ الجُدْجُدِ؟".



حَدَّقَتْ والِدَتُها إلى وَجهِها، تابَعَتْ نَيْروزُ بِوَتيرَةٍ أَسرَعَ: "لِتَوضيحِ فِكرَتي أَكْثَرَ، أَقتَرِحُ عَمَلَ اختِبارٍ لِوُجودِ خَميرَةِ المُبَيِّضاتِ، أَوِ المُقَوَّساتِ الغونديَّةِ في أَجسادِ الضَّحايا".

"نَيْروزُ! كُلُّ ذلِكَ لِأَجلِ ماذا؟!". خَرَجَتْ نَبرَةُ والِدَتِها حادَّةً رَغمًا عَنها.

صَمَتَتْ نَيْروزُ بُرهَةً، ثُمَّ قالَتْ: "لِتَأكيدِ افتِراضي الخاصِّ، وَهُوَ أَنَّ السَّبَبَ وَراءَ كُلِّ ذلِكَ، هَجْمَةٌ أَوَّلِيَّةٌ مِن وَباءٍ مُقبِلٍ، وَباءٍ مِنَ الطُّفَيْلِيّاتِ".

وَاعتَدَلَتْ والِدَتُها في جِلسَتِها بِانزِعاجٍ!

* * *

كانَتِ الدُّكتورَةُ ديمَةُ تَمُرُّ في رُواقٍ بِمَصَحَّةِ الطِّبِّ الشَّرعِيِّ، عِندَما لَمَحَتْ سَمْعانَ رائِفٍ، ضابِطَ المَباحِثِ، يَنعَطِفُ إلى أَحَدِ المَمَرّاتِ. هَروَلَتْ إلَيهِ، دَلَفَتْ لِلمَمَرِّ، فَوَجَدَتِ الضّابِطَ يُراجِعُ تَقريرًا في يَدِهِ. بادَرَتْهُ: "سَيِّدُ سَمْعانُ، كُنتُ أُريدُ رَأْيَكَ في شَأنٍ هامٍّ".

رَفَعَ الضّابِطُ ذو الحاجِبَينِ الكَثَّينِ نَظَراتِهِ إلَيها، تابَعَتْ: "قَضيَّةُ ضَحايا الحَوادِثِ الجَماعيَّةِ، مِن خِلالِ..."، قاطَعَها بِاقتِضابٍ:

"ماذا عَنْها؟! هذِهِ قَضايا في سَبيلِها لِلإغلاقِ ضِدَّ مَجهولٍ، لِعَدَمِ الوُصولِ إلى دَليلٍ جِنائيٍّ ذي بالٍ. أمّا المُصابونَ مِنهُم، فَتَنتَظِرُهُم عَواقِبُ جِنائيَّةٌ ثَقيلَةٌ".

تَنَحْنَحَتِ الدُّكتورَةُ ديمَةُ: "هذا ما أَرَدتُ الحَديثَ مَعَكَ بِشَأنِهِ". اخْتَلَجَ جَفْناهُ في حَرَكَةٍ عَصَبيَّةٍ، أَردَفَتْ: "هذِهِ القَضايا لَيسَتْ بِلا سَبَبٍ، وَيَجِبُ أَلّا تُقَيَّدَ ضِدَّ مَجهولٍ، وَمَن بَقِيَ حَيًّا مِنَ المُصابينَ لا أَظُنُّهُ يَستَحِقُّ العُقوبَةَ".

طَفَرَتْ نَظرَةٌ صارِمَةٌ مِن عَينَيِ الضّابِطِ، فَأَردَفَتْ مُسرِعَةً: "لِأَنَّهُم لَيسوا الجُناةَ، وَأَظُنُّني... أَعرِفُ الجانِيَ". وَقَبلَ أَن تَنفَرِجَ شَفَتا الضّابِطِ بِالتَّعقيبِ، قالَتْ بِنَبرَةٍ قاطِعَةٍ: "أَرجوكَ، أَوَّلًا- سَيِّدُ سَمْعانُ- تَفَضَّلْ إلى مَكتَبي، لِأَشرَحَ لَكَ كُلَّ شَيءٍ".

* * *

"سَيِّدَتي، مَعَ احتِرامي لِحَديثِكِ الَّذي تَجاوَزَ العَشرَ دَقائِقَ، إلّا أَنَّني لَم أَفهَمْ شَيئًا ذا بالٍ!".

قالَ الضّابِطُ سَمْعانُ، وَهُوَ يَعتَدِلُ في مَقعَدِهِ المُواجِهِ لِمَكتَبِها. كان يَبْدو عَلَيهِ الضَّجَرُ وَالانزِعاجُ، فَأَعادَتِ الدُّكتورَةُ ديمَةُ صِياغَةَ ما قالَتْهُ: "سَيِّدُ سَمْعانُ، بَعدَ إعادَةِ فَحْصِ الجُثَثِ، وَاستِدعاءِ المُصابينَ لِإجراءِ عِدَّةِ تَحاليلَ، تَبَيَّنَ التّالي...". عَقَدَ سَمْعانُ حاجِبَيهِ كَما لَو يُريدُ التَّركيزَ أَكثَرَ في هذِهِ الجُزئيَّةِ، وَديمَةُ تَستَطرِدُ: "لَقَد تَمَّ رَصْدُ زِيادَةٍ غَيرِ مَعقولَةٍ بِبَكْتيريا (بريفوتيللا) في أَمعائِهِم، وَكَذلِكَ ديدانِ (نيماتومورف) بَل وَديدانٍ شَعْريَّةٍ، داخِلَ سائِرِ أَجزاءِ أَجسادِهِم"، وَبَدَتْ كَما سَتُتابِعُ لكِنَّها أَمسَكَتْ لَحظَةً، ثُمَّ قالَتْ: "بِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ الأَسماءِ العِلميَّةِ، فَإنَّ هذِهِ الكائِناتِ الدَّقيقَةَ جِدًّا، تَحمِلُ داخِلَها نَوعًا خاصًّا مِنَ الطُّفَيْليّاتِ. هذا النَّوعُ يُصيبُ عادَةً الحَشَراتِ وَالكِلابَ، بَل وَالأَسماكَ، وَعِندَما يَتَمَكَّنُ مِنَ السَّيطَرَةِ عَلَيها، يُحَوِّلُها حَرفيًّا إلى دُمًى، يُحَرِّكُها كَيفَما يَشاءُ!".

نَظَرَ إلَيها الضّابِطُ في مَزيجٍ مِنَ الضّيقِ وَالارتِيابِ، إلّا أَنَّهُ واصَلَ الإصْغاءَ، فَتابَعَتْ:



"هـذِهِ الطُّفَيْلِيّـاتُ لَدَيْهـا الـمَقدِرَةُ عَلـى تَـحريكِ عَوائِلِهـا، وَلِغَـرَضٍ وَحيـدٍ وَهُـوَ اسـتِكمالُ دَورَةِ حَياتِهـا، فَـإِنْ كانَ العائِـلُ عَلـى الأَرضِ، وَهِـيَ تُريـدُ استِكمالَ حَياتِها فـي الماءِ، فَإِنَّها تَدفَعُـهُ لِيَتَحَـرَّكَ- دونَ سَـيطَرَةٍ مِنـهُ عَلـى نَفسِـهِ- لِلتَّوَجُّـهِ إلـى الماءِ، وَإِغراقِ نَفسِـهِ هُنـاكَ، فَقَـطْ لِتَخرُجَ مِـن جَسَـدِهِ بَعدَ مَوتِهِ، وَتَستَكمِلَ دَورَةَ حَياتِها".

جَمْجَمَ الضّابِطُ: "دُكتورَةُ ديمَةُ! ما عَلاقَةُ الـحَشَراتِ وَالدّيدانِ بِقَضِيَّتِنا؟!".

قالَـتِ الطَّبيبَـةُ بِكِياسَـةٍ: "مـا أَوَدُّ قَولَـهُ هُـوَ أَنَّـهُ مِـن خِلالِ تَـحاليلِ الضَّحايـا وَجَـدتُ أَنَّ الطُّفَيْلِيّـاتِ الَّتـي أُحَدِّثُـكَ عَنهـا، تَـمَكَّنَتْ بِشَـكلٍ مـا، مِـنَ انتِقـاءِ عَوائِلِها، لِيَكونوا مِنَ البَشَرِ".

صَمَـتَ الضّابِـطُ، ضاقَـتْ عَينـاهُ، ثُـمَّ قـالَ بِبُـطءٍ: "هَـل تَتَخَيَّليـنَ وَقْـعَ تَقريـرٍ يَـحْوي ما تَقولينَ، عَلى رُؤَسائي؟".

شَـدَّتِ الدُّكتـورَةُ ديمَـةُ جِذعَهـا: "الأَمـرُ أَكبَـرُ مِـنَ استِشـعارِ مُـجَرَّدِ حَـرَجٍ، أَو ضيقِ أُفُقِ أَحَدِهِم

لا يَـجدُرُ تَكْرارُ مـا جَـرى مَـعَ (لـي وينْليانغ) طَبيـبِ العُيـونِ الصّينيِّ، الَّـذي كانَ أوَّلَ مَـن حَـذَّرَ مِـن مَـرَضِ كوفيـد-19، فـي نِهايَـةِ عـامِ 2019، وَلكِـنَّ الشُّرطَةَ طَلَبَتْ مِنهُ التَّوَقُّفَ عَنِ الإِدْلاءِ بِنَشْرِ تَعليقاتٍ كاذِبَةٍ، بَل وَخَضَعَ لاحِقًا لِتَحقيقٍ بِتُهمَةِ نَشرِ الشّائِعاتِ!".

تَجَهَّمَ وَجهُ الضّابِطِ، وَالطَّبيبَـةُ تُتابِعُ: "هـذا وَبـاءٌ جَديـدٌ. رُبَّمـا يَكونُ مـا زالَ في طَوْرِ التَّشَكُّلِ، وَمِنَ العارِ أَن يَمنَحَنا القَدَرُ فُرصَةً لِإيقافِهِ، وَلا نَفعَلُ!".
شَـبَّكَ الضّابِـطُ أَصابِـعَ كَفَّيْـهِ أَمـامَ صَـدرِهِ، أَبقاهُمـا هكَـذا بُرْهَـةً، ثُـمَّ أَرْخـى يَدَيهِ، وَهُوَ يَقولُ: "ماذا تَقتَرِحينَ؟".

قالَـتْ: "مـا أَتَـحَدَّثُ عَنـهُ يَـدورُ فـي فَلَـكِ عِلـمٍ حَديـثٍ نِسبيًّا، يُدْعـى عِلْـمَ الطُّفَيْلِيّـاتِ العَصَبيَّـةِ، هـذا العِلـمُ يَعمَـلُ عَلـى اكتِشـافِ آليَّـةِ عَمَـلِ الطُّفَيْـلِ فـي التَّعْديـلِ وَالسَّـيطَرَةِ عَلـى شَـبَكاتٍ عَصَبيَّـةٍ مُـحَدَّدَةٍ، لَـدى الـمُضيفِ وَبِالتّالي دَفْعُهُ إِلى سُلوكيّاتٍ مُعَيَّنَةٍ".
ارتَفَعَ رَنينُ هاتِفِها الجَوّالِ في هذِهِ اللَّحظَةِ. كَتَمَتْ صَوتَ الجَرَسِ بِضَغطَةٍ عَلـى جَوّالِـها، ثُـمَّ تابَعَـتْ: "مِـن خِلالِ مُتابَعَتي لِلمُؤتَـمَراتِ العِلميَّـةِ، ثَمَّـةَ طَبيـبٌ لامِـعٌ فـي الفَتـرَةِ الأَخيـرَةِ مِـن بَلَدِنـا، قَـدَّمَ العَديـدَ مِـنَ الأَوراقِ العِلميَّـةِ فـي ذاتِ التَّخَصُّـصِ، لَـم تَلْـقَ الصَّـدى الكافِـيَ بَعـدُ، لكِنَّـهُ كُلُّ مـا لَدَيْنا".

قالَ الضّابِطُ: "تَقولينَ بِأَنَّ هذا الطَّبيبَ مُتَخَصِّصٌ فيما تَتَحَدَّثينَ عَنهُ؟".
أَومَـأَتْ بِرَأسِـها، وَقالَـتْ: "وَأَقتَـرِحُ ضَمَّـهُ رَسـميًّا لِدِراسَـةِ مـا تَوَصَّلـتُ إِلَيـهِ حَتمًا سَيُفيدُنا في تَخَصُّصِهِ".
نَهَضَ، فيما يَقولُ: "لا بَأْسَ! ما دامَ وُجودُهُ سَيُفيدُ القَضيَّةَ... ما اسمُهُ؟".
قالَـتْ: "الدُّكتـورُ غَريـبٌ رَشْـدانُ". فَـرَكَ أُذُنَـهُ بِأَصابِعِـهِ، وَهُـوَ يَتَّجِـهُ لِلبـابِ: "حَسَـنًا، سَـأَقومُ بِاستِدعائِهِ، عَسـى أَن يُضفَـيَ وُجـودُهُ الـمِصداقيَّةَ الكافِيَـةَ لِـما سَأُقَدِّمُهُ لِرُؤَسائي، بِناءً عَلى ما سَتَتَوَصَّلانِ إِلَيهِ".
أَومَـأَتِ الدُّكتـورَةُ ديمَـةُ رَأسَـها بِحَماسَـةٍ. وَحينَمـا أَغلَـقَ الضّابِـطُ البـابَ أَدرَكَتْ أَنَّ طَريقَ عَمَلٍ طَويلًا، وَشاقًّا، قَد بَدَأَ لِلتَّوِّ.

* * *



جَلَسَ ضابِطُ الـمَباحِثِ سَمْعانُ مُقابِلَ الدُّكتورَةِ ديمَةَ، وَابنَتِها نَيْروزَ حَولَ مائِدَةٍ مُستَطيلَةٍ، داخِلَ أَحَدِ الـمَقاهي العَصريَّةِ في رُكْنٍ بِأَقْصى زاوِيَةِ الصّالَةِ.

"لا أَعلَمُ سَبَبَ استِقدامِ ابنَتِكِ، هـذِهِ جَلسَةُ عَمَلٍ"، قالَ ضابِطُ الـمَباحِثِ بِنَبْرَةِ تَقْريعٍ.

تَغَضَّنَ جبينُ نَيْروزَ، فيما أَسرَعَتْ والِدَتُها: "ابنَتي ذاتُ شَغَفٍ جَمٍّ بِالعُلومِ. وَبِالـمُناسَبَةِ، هِيَ مَن لَفَتَ نَظَري لِشُبهَةِ تَسَبُّبِ الطُّفَيْليّاتِ في القَضايا الأَخيرَةِ".

نَظَرَ الضّابِطُ لِلصَّبيَّةِ بِاستِهانَةٍ، ثُمَّ أَشاحَ بِوَجهِهِ: "أَكْرَهُ التَّأَخُّرَ عَنِ الـمَواعيدِ، لَعَلّي أَخطَأْتُ في عَدَمِ استِدْعاءِ هذا العالِمِ لِـمَخْفَرِ الشُّرطَةِ!".

وَكَزَتْ ديمَةُ ابنَتَها: "لا داعِيَ، لَقَد أَتى الدُّكتورُ غَريبٌ".

وَرَفَعَ ثَلاثَتُهُم أَعيُنَهُم إلَيهِ. كانَ رَجُلًا طَويلَ القامَةِ، يَرتَدي حُلَّةً كامِلَةً مَعَ رَبْطَةِ عُنُقٍ عَتيقَةِ الطِّرازِ، ذا وَجْهٍ طَويلٍ وَذَقْنٍ عَريضَةٍ، وَشارِبٍ رَفيعٍ يَعْلوهُ أَنفٌ مُدَبَّبٌ.

صافَحَهُم جَميعًا، ثُمَّ اختارَ الـجُلوسَ جِوارَ الدُّكتورَةِ ديمَةَ، الَّتي دَفَعَتْ نَيْروزَ لِتَتَزَحْزَحَ قَليلًا، وَتُفسِحَ لَهُ مَكانًا. استَغْرَقَ الضّابِطُ في إيجازِ الـمَوضوعِ لِلدُّكتورِ غَريبٍ، فيما أَمعَنَتْ نَيْروزُ النَّظَرَ فيهِ. قَدَّرَتْ أَنَّهُ جاوَزَ الـخَمسينَ.

وَقالَ الدُّكتورُ غَريبٌ: "كَلامٌ جَميلٌ، لكِنّي لا أَعلَمُ، لِماذا أَنا تَحْديدًا؟!".

أَشارَ ضابِطُ الـمَباحِثِ إِلى ديمَةَ: "كَبيرَةُ الطِّبِّ الشَّرعيِّ هِيَ مَن رَشَّحَتْكَ".

قالَتْ ديمَةُ: "الدُّكتورُ غَريبٌ قامَةٌ كَبيرَةٌ في عِلمِهِ، هُوَ خَيرُ مَنْ بِوُسْعِهِ إِفادَتُنا".

انتَفَخَتْ أَوْداجُ الطَّبيبِ، فَخْرًا، ثُمَّ أَصْغى لِلطَّبيبَةِ، حَتّى انتَهَتْ مِن كُلِّ تَفاصيلِ القَضيَّةِ، ثُمَّ بَرَمَ طَرَفَ شارِبِهِ: "القَضيَّةُ تَحتَمِلُ تَأويلاتٍ لا حَصْرَ لَها كَمْ أَستَغرِبُ تَفكيرَكُمْ في الطُّفَيْليّاتِ بِالذّاتِ!".

قالَتْ نَيْروزُ بِهُدوءٍ: "هذِهِ فِكرَتي". لَمَعَتْ عَيناهُ، وَهُوَ يَسْبُرُها بِنَظَراتِهِ. أَكمَلَتْ: "بَدَأَ اهتِمامي بِهذا الـمَوضوعِ حينَما كُنتُ مُفرِطَةَ البَدانَةِ، كُنتُ أَستَغرِبُ شِدَّةَ رَغْبَتي في السُّكَّريّاتِ مَهْما كانَتْ مَعِدَتي مُـمتَلِئَةً؛ لِذا بَحَثتُ، وَعَلِمتُ بِوُجودِ نَوعٍ مِنَ الـخَميرَةِ تَنْمو في الأَمعاءِ تُدْعى الـمُبَيِّضاتِ كانْديدا، هذِهِ هِيَ الـمَسؤولَةُ عَن زِيادَةِ الرَّغبَةِ في تَناوُلِ السُّكَّريّاتِ".

قالَتِ الأُمُّ، وَهِيَ تَرمُقُ ابنَتَها بِحَنانٍ: "نَيْروزُ طَلَبَتْ إِجراءَ تَحاليلَ لِأَمعائِها، وَبِالفِعلِ صَدَقَ استِنتاجُها، وَتَمَّ تَطهيرُ أَمعائِها مِنها".

غَمَزَتْ نَيْروزُ بِعَينِها: "وَعُدتُ نَحيفَةً مَرَّةً أُخرى". تَقَلْقَلَ الضّابِطُ في جِلسَتِهِ ضَجَرًا قَبلَ أَن يُخاطِبَ الدُّكتورَ غَريبًا بِنَبرَةٍ خَشِنَةٍ: "لِتُخْبِرْنا بِرَدِّكَ. أَتقبَلُ الانضِمامَ، أَم نَبحَثُ عَن عالِمٍ آخَرَ؟".

قالَ الدُّكتورُ: "في الحَقيقَةِ، أَنا مَشغولٌ بِأَبحاثي وَأَوراقي العِلميَّةِ". بَدا الضّيقُ عَلى وَجْهِ الضّابِطِ. جالَ الدُّكتورُ غَريبٌ فيهِم بِنَظَراتِهِ، ثُمَّ قالَ: "لكِنّي لَم أَكُنْ لِأُفَوِّتَ فُرصَةَ دِراسَةِ حالَةٍ فَريدَةٍ كَهذِهِ، رُبَّما تَكونُ سَبيلي لِجائِزَةٍ عِلميَّةٍ أُخرى"، وَشَدَّ جِذعَهُ: "أَنا مَعَكُم، بَدْءًا مِن بَعدِ غَدٍ".

تَمَعَّرَ وَجهُ الضّابِطِ: "اتَّفَقْنا. غَدًا سَيُدَوَّنُ اسمُكَ رَسميًّا في فَريقِ مُتابَعَةِ القَضيَّةِ"، وَوَجَّهَ كَلامَهُ لِلطَّبيبَيْنِ: "تَوَقَّعا أَن يَتَّسِعَ نِطاقُ الـمُساءَلَةِ وَالـمُتابَعَةِ لِنَتائِجِ عَمَلِكُما، مِن كِبارِ قِياداتِ الدَّولَةِ"، وَنَظَرَ في الفَراغِ: "إِنْ تَكَرَّرَتْ هذِهِ الـحَوادِثُ مَرَّةً أُخرى، فَستَكونُ كارِثَةٌ".



"ضِدُّ كُلِّ الأَعداءِ"

هَبَّ هَواءٌ بارِدٌ مُنعِشٌ عَلى وَجْهِ رَجُلٍ حَليقٍ، قاسي المَلامِحِ. استَقبَلَ هَبَّةَ الهَواءِ فَوْرَ خُروجِهِ مِنَ الطّائِرَةِ. أَلْقى نَظرَةً عَلى المُتَزاحِمينَ لِلنُّزولِ عَبْرَ سُلَّمِ الهُبوطِ، فَتَحَ حَقيبَةَ يَدِهِ، اطمَأَنَّ عَلى مُحتَواها، ثُمَّ ابتَسَمَ ابتِسامَةً بارِدَةً، وَأَصابِعُهُ تَتَخَلَّلُ شَعرَهُ الذَّهَبيَّ النّاعِمَ المُتَطايِرَ وَنَزَلَ الدَّرَجَ في ثِقَةٍ وَخُيَلاءَ.

فَوْرَ خُروجِهِ مِنَ المَطارِ، طَلَبَ رَقْمًا عَبْرَ ساعَتِهِ الذَّكيَّةِ المَوصولَةِ بِجَوّالِهِ، وَعِندَما سَمِعَ صَوتَ مُحَدِّثِهِ عَبْرَ السَّمّاعَةِ اللّاسِلكيَّةِ المَخْفيَّةِ داخِلَ أُذُنِهِ، لَم يَزِدْ عَلى القَولِ بِنَبرَةٍ مُحايِدَةٍ: "قَد أَدخَلتُ الشِّحنَةَ بِأَمانٍ، لَم يَتَبَقَّ سِوى العُثورِ عَلى الهَدَفِ...". وَصَمَتَ لَحظَةً قَبلَ أَن تَختَلِجَ رُموشُهُ الذَّهَبيَّةُ، وَيُردِفَ بِنَبرَةٍ جَليديَّةٍ: "وَيَكونُ بِحَوْزَتِنا!".

* * *



جَلَسَ أَربَعَةُ رِجالٍ، داخِلَ الكابينَةِ الخَلفيَّةِ لِسَيّارَةِ نَقْلٍ تِجاريَّةٍ، عَلى الجانِبَينِ عَدَدٌ مِنَ الشّاشاتِ وَالحَواسيبِ، تَحمِلُ بَياناتٍ وَصُوَرًا، أَحَدُهُم مُمتَلِئُ الجِسمِ، كَثيفُ شَعرِ السّاعِدَيْنِ. الْتَفَتَ إلى رَفيقِهِ الَّذي كانَ يُعيدُ تَفكيكَ بُنْدُقيَّتِهِ بَعدَ تَنظيفِها: "الزَّعيمُ أَنْهى مَعي اتِّصالًا لِلتَّوِّ، يَتَأَكَّدُ مِن سَيْرِ الأُمورِ كَما هُو مُخَطَّطٌ".

عَدَّلَ رَفيقُهُ مِن وَضْعِ نَظّارَتِهِ، وَقالَ: "مَبْنى الطِّبِّ الشَّرعيِّ باتَ تَحتَ سَيطَرَتِنا يا (إنْزو)، فَريقُ العَمَليّاتِ التّابِعُ لَنا أَنْهى وَضْعَ كافَّةِ أَجهِزَةِ التَّنَصُّتِ داخِلَ الحُجُراتِ المَرصودَةِ، لِنُسَجِّلَ كُلَّ ما يَدورُ بِشَأنِ مَسأَلَةِ الطُّفَيْليّاتِ المُوَجَّهَةِ".

أَومَأَ "إنْزو" بِرأسِهِ، وَهُوَ يَحُكُّ ذَقْنَهُ النّابِتَةَ بِطَرَفِ مُسَدَّسِهِ، قائِلًا: "عَلى كُلِّ حالٍ، الأُمورُ العِلميَّةُ لَيسَتْ مِن شَأْني. أَمّا في حالِ تَطَوَّرَتِ الأُمورُ لِلأَسوَأ، فَعِندَئِذٍ يَحينُ دَوْري لِلتَّدَخُّلِ"، وَابتَسَمَ ابتِسامَةً كَشَفَتْ عَن أَسنانِهِ النَّخِرَةِ: "وَهذا ما أَتَمَنّاهُ".

* * *

قَرَّبَتِ امرَأَةٌ حَمراءُ الشَّعرِ مَخبولَةُ النَّظَراتِ، عَدَساتِ مِنظارِها مِن وَراءِ سِتارَةِ النّافِذَةِ المُطِلَّةِ عَلى نافِذَتَيْ شَقَّةِ الدُّكتورَةِ ديمَةَ، راقَبَتْها وَهِيَ تَتَحَدَّثُ مَعَ ابنَتِها. استَلَّتْ آلَةً أَشبَهَ بِمُسَدَّسٍ كَبيرِ الحَجمِ، يُحيطُ بِهِ قُمْعٌ شَفّافٌ عِندَ الفُوَّهَةِ، أَخرَجَتْ طَرَفَهُ مِنَ النّافِذَةِ وَصَوَّبَتْهُ تِجاهَ شَقَّةِ ديمَةَ. لَبِثَتْ لِلَحَظاتٍ، ثُمَّ عَدَّلَتْ مِن وَضْعِ السَّمّاعاتِ الكَبيرَةِ حَولَ أُذُنَيْها، وَقالَتْ: "مَرْحى، الآنَ شَقَّةُ الطَّبيبَةِ الَّتي لَدَيْها كُلُّ المَعلوماتِ حَولَ هذا السِّلاحِ، باتَتْ تَحتَ مُراقَبَتِنا الكامِلَةِ".

كانَتْ تَتَحَدَّثُ، فيما يَدُها اليُسْرى تَتَلاعَبُ بِحَرَكَةٍ استِعراضيَّةٍ مُتْقَنَةٍ، بَينَ أَصابِعِها الرَّفيعَةِ الطَّويلَةِ، بِخِنْجَرٍ مَشْقوقٍ مُفرَغٍ، وَهِيَ تُكَرِّرُ قَذْفَهُ في الهَواءِ.

لَم تَعلَمِ المَرأَةُ الصَّهباءُ، أَنَّ رَجُلًا أَشيَبَ الشَّعرِ، رِياضيَّ القَوامِ، كانَ مُتَوارِيًا وَراءَ سورِ سَطحِ العِمارَةِ المُقابِلَةِ، يُراقِبُها في هذِهِ اللَّحظَةِ، عَبْرَ مِنظارِ بُندُقيَّةٍ قَنّاصَةٍ، بَعيدَةِ التَّصويبِ. أَزاحَ الرَّجُلُ البُندقيَّةَ عَن وَجهِهِ وَجَلَسَ وَظَهرُهُ لِلسّورِ، مادًّا ساقَيهِ أَمامَهُ، قائِلًا في سُخْطٍ: "أَيًّا كانَ الطَّرَفُ المَأْفونُ الَّذي هاتَفَنا لِشِراءِ سِرِّ سَيطَرَتِهِ عَلى الطُّفَيْليّاتِ، مِنَ الواضِحِ أَنَّهُ دَعا الجَميعَ: رِجالَ استِخباراتٍ، عِصاباتٍ عالَميَّةً، مافْيا. الأَخرَقُ يَظُنُّ أَنَّهُ بِذلِكَ يَرفَعُ قيمَةَ المَزادِ".

وَصَمَتَ لَحظَةً، ثُمَّ مَطَّ شَفَتَهُ السُّفلى بِازدِراءٍ: "لا يَعلَمُ أَنَّهُ بِذلِكَ وَقَّعَ وَثيقَةَ هَلاكِهِ، عَلى الأَرجَحِ"، وَجَذَبَ مِزلاجَ مُسَدَّسِهِ، الَّذي أَصدَرَ تَكَّةً مَعدِنيَّةً خافِتَةً، قَبلَ أَن يُردِفَ: "سَتَبدَأُ بَينَنا حَربٌ شَعْواءُ، الرَّبُّ وَحدَهُ يَعلَمُ، إلى مَن سَيَؤولُ الاختِراعُ في النِّهايَةِ".

وَرَغمَ الظَّلامِ، وَمَضَتْ عَيناهُ بِتَصميمٍ.

* * *

ذَرَعَ الدُّكتورُ غَريبٌ قاعَةَ الفَحصِ، حَيثُ تَعمَلُ الدُّكتورَةُ ديمَةُ. كانَتْ نَيْروزُ جالِسَةً تَشرَبُ كوبًا مِن عَصيرِ الرُّمّانِ، فيما تَرمُقُ الرَّجُلَ الَّذي بَدا عَلَيهِ الامتِعاضُ.

"كَيفَ تَستَطيعينَ العَمَلَ في بيئَةٍ فَقيرَةِ التِّكنولوجيا بِهذا الشَّكلِ؟!" قالَ العالِمُ بِنَبرَةِ استِنكارٍ.

أَشارَتْ إلَيـهِ ديمَـةُ بِالـجُلوسِ: "أَعمَـلُ وَفْـقَ الإمكانـاتِ، وَلِلأَمانَـةِ لَدَينـا ما يَكْفينـا". جَلَـسَ الدُّكتـورُ غَريـبٌ، وَعَلـى وَجهِـهِ عَـدَمُ اقتِنـاعٍ. وَضَـعَ سـاقًا فَـوقَ أُخـرى، وَقـالَ: "لا يُمكِـنُ أَن أَسـتَقطِعَ مِـن وَقـتِ أَبْحاثـي الكَثيـرَ، لَقَـد قَـرَأتُ كافَّـةَ الأَوراقِ الَّتـي تَسَـلَّمتُها مِنـكِ. أَزعُـمُ أَنَّ الماكِـرَةَ الصَّغيـرَةَ هـذِهِ فَعَلَتْ شَيئًا استِثْنائيًّا".

استَمَرَّتْ نَيْـروزُ فـي تَـجَرُّعِ العَصيـرِ، فيمـا تَنظُـرُ إلَيـهِ بِبَـراءَةٍ، تابَـعَ: "مـا خَلَصتُ إلَيـهِ هُـوَ التّالـي؛ لَطالَـما كانَ لِلطُّفَيْليّـاتِ دَورٌ أَساسيٌّ فـي السَّـيطرَةِ عَلـى سُـلوكِ اللّا فَقاريّـاتِ. الـمُعضِلَةُ هُنـا، كَيـفَ تَـمَّ تَطويعُـها لِلسَّـيطَرَةِ عَلى النّاقِلاتِ العَصَبيَّةِ لِلبَشَرِ؟!".

قالَـتْ نَيْـروزُ بِتِلقائيَّـةٍ بَريئَـةٍ، فيمـا تَشـرَبُ العَصيـرَ: "مـا نَتَوَقَّعُـهُ - بِحُكـمِ تَـخَصُّصِ حَضرَتِكَ- هُوَ إجابَةُ هذا السُّؤالِ".

حَدَجَـتِ الدَّكتـورَةُ ديمَـةُ ابنَتَهـا بِنَظـرَةِ لَـوْمٍ، إلّا أَنَّ الطَّبيـبَ تابَـعَ: "وَلَـوْلا التَّطَوُّراتُ الأَخيرَةُ في عِلْمَيْ تَسَلسُلِ الجيناتِ وَ"البروتيومياتِ" ما كانَ لَنـا أَن نَفهَـمَ الـدَّورَ الَّـذي تَلعَبُـهُ النّـاقِلاتُ العَصَبيَّـةُ فـي السَّماحِ لِلطُّفَيْليّاتِ بِالتَّلاعُبِ بِسُلوكِ الـمُضيفِ".

كَـرَّرَتْ نَيْـروزُ: "بروتيومياتٌ!". أَوضَحَـتْ ديمَـةُ: "هِـيَ دِراسَـةُ جَميـعِ أَصنـافِ وَأَنـواعِ البُروتينـاتِ. تَـحديدًا مـا يَتَعَلَّـقُ بِبِنيَـةِ البُروتيـنِ وَوَظائِفِـهِ، الَّـذي هُـوَ أَحَـدُ أَهَـمِّ الـمُكَوِّناتِ الرَّئيسـيَّةِ لِـكُلِّ كائِـنٍ حَـيٍّ". وَقـالَ الدُّكتـورُ غَريـبٌ: "كَمـا أَنَّ عِلـمَ تَسَلسُـلِ الجينـاتِ يَـدرُسُ الجينـاتِ وَتَسَلسُـلَها، فَـإنَّ عِلـمَ "البروتيوميـاتِ" يُفَسِّـرُ كُلَّ شَـيءٍ عَـنِ البروتينـاتِ، وَمـا يَهُمُّنـا هُنـا، كَيـفَ تَعتَمِدُ عَلَيها النَّواقِلُ العَصَبيَّةُ بِشَكلٍ أَساسيٍّ!".

قالَتْ نَيْروزُ بِحَذَرٍ: "النَّواقِلُ العَصَبيَّةُ لَيسَتْ هُرموناتٍ، صَحيحٌ؟".

قالَـتْ ديمَـةُ: "صَحيـحٌ، فَالنَّواقِـلُ العَصَبيَّـةُ تَنتَمـي إلـى الـجِهازِ العَصَبيِّ، فـي حيـنِ أَنَّ الـهُرموناتِ تَنتَمـي إلـى نِظـامِ الغُـدَدِ الصَّمّـاءِ. انتِقـالُ النَّواقِـلِ العَصَبيَّـةِ يَتِـمُّ عَبْـرَ الفَجـوَةِ الَّتـي تَفصِـلُ بَيـنَ الـخَلايا العَصَبيَّـةِ، فيمـا تَنتَقِـلُ الـهُرموناتُ عَن طَريقِ الدَّمِ".

قالَتْ نَيْروزُ: "ما أَعلَمُهُ أَنَّ الهُرموناتِ يَتِمُّ إنتاجُها مِنَ الغُدَدِ الصَّمّاءِ في حينِ أَنَّ النَّواقِلَ العَصَبِيَّةَ تُنتِجُها الخَلايا العَصَبِيَّةُ".

لَمَعَتْ عَيْنا الدُّكتورِ غَريبٍ: "عَبقَرِيَّةُ مَن يَقِفُ وَراءَ تَحَوُّرِ الطُّفَيْليّاتِ أَنَّهُ تَمَكَّنَ مِن جَعْلِها تُنتِجُ نَواقِلَ عَصَبِيَّةً بِمُواصَفاتٍ خاصَّةٍ، بِحَيثُ تَستَطيعُ التَّلاعُبَ بِسُلوكِ كائِنٍ مُعَقَّدٍ كَالإنسانِ".

قالَتْ ديمَةُ: "النَّواقِلُ العَصَبِيَّةُ في الأَصلِ رَسائِلُ الجِسمِ الكيميائِيَّةُ، الَّتي يَستَخدِمُها الجِهازُ العَصَبِيُّ لِنَقْلِ الرَّسائِلِ، سَواءٌ فيما بَينَ الخَلايا العَصَبِيَّةِ ذاتِها، أَو مِنَ الخَلايا العَصَبِيَّةِ إلى العَضَلاتِ".

قالَتْ نَيْروزُ: "ما دامَ الأَمرُ مُتَعَمَّدًا هكَذا، وَلَيسَ نَتيجَةَ طَفْرَةٍ عَشوائِيَّةٍ فَلِماذا لا تَكونُ الحَوادِثُ الأولى نَوْعًا مِنَ التَّجارِبِ، لِقِياسِ مَفعولِ الطُّفَيلِ؟".

لَمَعَتْ عَيْنا الدُّكتورِ غَريبٍ، وَإنْ لَم يُعَقِّبْ.

تَساءَلَتِ الدُّكتورَةُ ديمَةُ: "دُكتورُ غَريبُ! القِياداتُ الأَمنِيَّةُ تَتَوَقَّعُ هَجَماتٍ أُخرى، كَيفَ سَنَتَعامَلُ مَعَها حينَها؟".

طالَ صَمْتُ الطَّبيبِ، حَتّى ظَنَّتْ نَيْروزُ أَنَّهُ لَن يُجيبَ، إلّا أَنَّهُ قالَ بَعدَ بُرْهَةٍ: "الغابا".

"ماذا؟!"، أَجفَلَتْ نَيْروزُ، فيما تَوَرَّدَ وَجْهُ ديمَةَ: "الغابا هُوَ ناقِلٌ عَصَبِيٌّ مُثَبِّطٌ لِنَظائِرِهِ مِنَ النَّواقِلِ العَصَبِيَّةِ. حَلٌّ عَبقَرِيٌّ".

غَمغَمَ: "نَظَرِيًّا".

رَمَقَتْهُ ديمَةُ بِتَساؤُلٍ... استَطرَدَ: "هذا أَمرٌ لَم تَتِمَّ تَجرِبَتُهُ مِن قَبلُ عَلى طُفَيْليّاتٍ كَهذِهِ، ثُمَّ إنَّ الإفراطَ فيهِ يُؤَدّي إلى مَشاكِلَ صِحِّيَّةٍ عَويصَةٍ أَقَلُّها الصَّرْعُ".

قالَتْ ديمَةُ: "مَهما كانَتِ الآثارُ الجانِبِيَّةُ، فَإنَّهُ يُمكِنُ السَّيطَرَةُ عَلَيها. هذا أَفضَلُ مِن زَهْقِ الضَّحايا لِأَرواحِهِم".

تَكَلَّمَتْ نَيْروزُ: "وَلكِنَّنا هكَذا نَتَعامَلُ مَعَ العَرَضِ، لا المَرَضِ"



وَكَزَتْ ديمَةُ ابنَتَها: "الدُّكتورُ غَريبٌ يَكسِبُ لَنا وَقْتًا، رَيثَما نَستَطيعُ دِراسَةَ الطُّفَيلِ أَكثَرَ". نَظَرَ الدُّكتورُ غَريبٌ لِساعَةِ مِعْصَمِهِ، نَهَضَ قائِلًا: "الآنَ سَتُبْلِغينَ ضابِطَ المَباحِثِ بِما قُلتُ، عَلَيهِ سَريعًا تَعبِئَةُ هذِهِ المادَّةِ في بَنادِقَ كَتِلكَ الَّتي تُستَخدَمُ في تَخديرِ الحَيَواناتِ البَرِّيَّةِ".

رَفَعَتْ ديمَةُ حاجِبَيْها: "وَلِماذا؟".

قالَتْ نَيروزُ: "استِعدادًا لِمُواجَهَةِ المَوجَةِ المُقبِلَةِ".

قالَ الدُّكتورُ غَريبٌ: "أَبلِغيهِ كَذلِكَ بِميعادِها".

تَفَجَّرَتِ الدَّهشَةُ في وَجْهَيِ الطَّبيبَةِ وَابنَتِها، تابَعَ فيما يَرفَعُ كَتِفَيهِ: "لَو كُنتُ مَكانَهُ، وَأَرَدتُ عَمَلَ أَفضَلِ وَقْعٍ دِعائِيٍّ لِهذا الاكتِشافِ، لَما وَجَدتُ زَخْمًا أَفضَلَ مِن مُناسَبَةِ مِهْرَجانِ السّينِما الدُّوَلِيِّ المُقبِلِ، بَعدَ أَربَعَةِ أَيّامٍ".

قالَتْ نَيْروزُ: "حَضرَتُكَ تَقصِدُ أَنَّهُ سَيُرسِلُ بَعضَهُم لِإفسادِهِ؟".

أَوْمَأَ الدُّكتورُ غَريبٌ بِرَأسِهِ، وَقالَ: "رُبَّما، وَكُلَّما كانَ الإفسادُ مُرَوِّعًا، كانَ الإعلانُ أَفضَلَ، وَأَعظَمَ وَقْعًا".

وَامْتَقَعَ وَجهُ ديمَةَ، فيما حَبَسَتْ نَيْروزُ أَنفاسَها.

"مَزادٌ"

جَلَسَتْ ديمَةُ وَنَيْروزُ مُتَجاوِرَتَيـنِ، تَرمُقـانِ التِّلْفـازَ ذا الـخَمسينَ بوصَـةً، فـي صالَـةِ الـمَعيشَةِ، فـي تَرَقُّبٍ وَتَركيـزٍ. فـي الأَحـوالِ العاديَّـةِ، كانَتـا تُتابِعـانِ دَومًا افتِتـاحَ الـمِهرَجانِ السّينِمائيِّ الدُّوَلـيِّ فـي مَوعِدِهِ السَّنَويِّ، في نَشْوَةٍ وَاستِمتاعٍ، فَكِلاهُمـا يُـحِبُّ السّـينِما، وَمُتابَعَـةَ أَخبـارِ نُجومِهِما الـمُفَضَّلينَ وَرُؤيَتَهُـم فـي حالاتِهِـمُ الطَّبيعيَّـةِ، بَعيـدًا عَـنِ التَّمثيـلِ، كَمـا فـي مُناسَـباتٍ كَهذِهِ. وَلكِنَّ، اللَّيلَةَ بِالذّاتِ، كُلُّ شَيءٍ مُختَلِفٌ.

مَضـى الوَقـتُ بِنَيْـروزَ، وَهِـيَ تَقـرِضُ ظُفْـرَ سَـبّابَتِها، هَـل سَـيَهجُمونَ الآنَ؟ هَـل سَـيَتَحَوَّلُ الافتِتـاحُ الكَبيـرُ إِلـى فَضيحَـةٍ؟ هَـل تُفلِحُ اسـتِعداداتُ الشُّـرطَةِ فـي وَأْدِهِ فـي الوَقـتِ الـمُناسِـبِ؟ أَم كُلُّ ذلِـكَ مُبالَغـاتٌ، وَقِراءَةٌ خاطِئَـةٌ مِـنَ الدُّكتورِ غَريبٍ؟

أَخرَجَهـا صَـوتُ والِدَتِهـا مِـن خَواطِرِهـا: "حَفـلُ الافتِتـاحِ شـارَفَ عَلـى الانتِهـاءِ أَتَـمَنّـى أَلّا تَـحدُثَ كارِثَةٌ ما".

قالَـتْ: "لِـماذا لا تُهاتِفيـنَ الضّابِـطَ سَـمْعانَ لِنَعـرِفَ آخِـرَ الأَخبـارِ؟". فَكَّـرَتْ والِدَتُها: "أَخْشى أَن يَكونَ في خِضَمِّ عَمَلٍ ما، وَأُخرِجَهُ مِن تَركيزِهِ".
قالَتْ نَيْروزُ: "حينَها لَن يَرُدَّ عَلَيكِ، وَينتَهِيَ الأَمرُ".

بَـدَتْ ديمَـةُ، كَمـا لَـو تُقَلِّـبُ الأَمـرَ بِرَأسِـها، ثُـمَّ تَنَهَّـدَتْ: "حَسَـنًا!". مَـدَّتْ يَدَهـا إِلـى مـا ظَنَّتْـهُ هاتِفَهـا النَّقّـالَ، وَوَضَعَتْـهُ عَلـى أُذُنِها، ضَحِكَـتْ نَيْـروزُ: "مامـا! هـذا الـحاكومُ". حَملَقَـتْ ديمَـةُ بِمـا فـي يَدِهـا، ثُـمَّ ابتَسَـمَتِ ابتِسـامَةً مُرتَبِكَـةً، وَتَناوَلَـتْ هاتِفَهـا، وَطَلَبَـتِ الضّابِـطَ. مَضَـتْ نَحـوُ دَقيقَـةٍ قالَـتْ ديمَـةُ بِنَبـرَةِ لَـوْمٍ لِابنَتِها، وَهِـيَ تَشـرَعُ فـي غَلْـقِ الـخَطِّ: "أَلَـم أَقُـلْ لَـكِ..."، قاطَعَهـا فَتْـحُ الـمُكالَـمَةِ، تَـجَمَّدَتْ إِصبَعُهـا، وَصَـوتُ سَـمْعانَ يَنبَعِـثُ خَشِنًا، وَحَولَهُ صَخَبٌ كَثيفٌ: "آلو، الدُّكتورَةُ ديمَةُ".

قالَـتِ الطَّبيبَـةُ بِارتِبـاكٍ: "لا أُريـدُ تَشْـتيتَكَ، فَقَـط كُنـتُ أُريـدُ الاطمِئنـانَ، هَـل صَدَقَـتْ تَوَقُّعـاتُ الدُّكتـورِ غَريـبٍ بِـ ..."، قاطَعَهـا: "نَعَـم، نَعَـم. نَحـنُ هُنـا بِأَعدادٍ غَفيرَةٍ، تَمَّ اصطِيادُ الـمُهاجِمينَ بِنَجاحٍ، تَـمامًا كَما قَدَّرَ الطَّبيبُ.

وُجوهُهُـم بِنَفـسِ التَّعابيـرِ الَّتـي بِلا تَعابيـرَ، إنَّهُـم أُنـاسٌ كَالدُّمـى، عَلـى عَدَدِهِـمُ القَليـلِ، مُـجَرَّدُ بِضعَـةِ أَشخاصٍ". قالَـتْ ديمَـةُ: "حَـمْدًا لِلّـهِ، أَنَّكُـم سَـيطَرتُمْ عَلـى الأَمـرِ". هَمَسَـتْ بِها نَيـروزُ: "اسـأَليهِ، هَـل وَقَعَـتْ إصابـاتٌ؟" كادَتْ ديمَـةُ تَطـرَحُ السُّـؤالَ، لَـوْلا أَنْ طَغـى عَلـى الـمُكالَـمَةِ صَـوتُ إشـارَةٍ لاسِلكيَّةٍ، أَعقَبَها صَوتٌ أَجَشُّ يَتَكَلَّـمُ بِسُـرعَةٍ، ما مَيَّزَتْهُ ديمَـةُ أَنَّ الـمُتَحَدِّثَ كانَ مُنزَعِجًا لِلغايَـةِ. خاطَبَـتْ ديمَـةُ الضّابِـطَ: "هَـل ثَمَّـةَ خَطْـبٌ مـا؟" مَضَـتْ بُرْهَـةٌ، ثُـمَّ قـالَ سَـمْعانُ بِصَـوتٍ يَتَمَيَّـزُ غَضَبًـا: "الوَغْـدُ! شَـغَلَنا بِأَمـرِ الـمِهْرَجانِ، وَهاجَمَ بِأَعدادٍ كَبيرَةٍ الـمَصْرِفَ في وَسَطِ الـمَدينَةِ".

اضطَرَبَتْ ديمَةُ: "رَجُلٌ! أَيُّ رَجُلٍ؟ وَأَيُّ مَصْرِفٍ؟!".

عـادَ يُـخاطِبُ الطَّبيبَـةَ، وَقَـدِ ازدادَتِ الـخُشونَةُ بِنَبرَتِـهِ: "صانِـعُ الطُّفَيْلِيّـاتِ اللَّعينَـةِ! وَرَدَتْـني لِلتَّـوِّ إشارَةٌ لاسِـلكِيَّةٌ بِهُجـومٍ وَقَـعَ عَلى الـمَصْرِفِ الـمَركَزِيِّ وَفِـرارِ الـجُناةِ بِالأَمـوالِ إلـى جِهَـةٍ مَـجهولَةٍ، بَعدَ وُقـوعِ أَعـدادٍ كَبيـرَةٍ مِـنَ الضَّحايـا". قالَـتْ ديمَـةُ: "رُبَّمـا لُصـوصٌ عاديّـونَ لا عَلاقَـةَ لَـهُم بِـ ... " قاطَعَها في جَفاءٍ: "الأَوصافُ الَّتي تَلَقَّيتُها هِيَ ذاتُها لِأَصحابِ الـحَوادِثِ الأولـى"، وَأَغلَـقَ الـمُكالَـمَةَ فَجـأَةً. وَضَعَـتْ ديمَـةُ جَوّالَـها، وَقَـد شَـحَبَ وَجهُهـا، الْتَفَتَـتْ لِابنَتِهـا، فَوَجَدَتْهـا شـاخِصَةَ البَصَـرِ تِـجاهَ التِّلْفـازِ، وَجَّهَـتْ نَظَرَها إلَيهِ، فَوَجَدَتْ بَثًّا حَيًّا لِآثارِ عَمَلِيَّةِ اقتِحامِ الـمَصْرِفِ الـمَركَزِيِّ.

* * *

كانَ الدُّكتـورُ غَريـبٌ يَنقُـرُ بِمُقَدِّمَـةِ حِذائِـهِ، كَما لَـو يُـؤَدّي إيقاعًـا لِلَحْـنٍ فـي ذِهنِـهِ، فـي جِلسَـتِهِ بِمُواجَهَـةِ الدُّكتـورَةِ ديمَـةَ، الَّتـي كانَـتْ توشِـكُ عَلـى إنهاءِ إعادَةِ تَصفيفِ شَعرِ نَيْروزَ، عِندَما دَلَفَ الضّابِطُ سَمْعانُ لِـمَكتَبِها. تَوَقَّعَـتْ نَيْـروزُ دُخـولًا عاصِفًـا، إلّا أَنَّ الضّابِـطَ جَلَـسَ بِهُـدوءٍ مُقابِـلَ الدُّكتـورِ غَريـبٍ، قائِلًا: "هَل مِن جَديدٍ؟".

قالَـتِ الدُّكتـورَةُ ديمَـةُ: "لَقَـدِ اطَّلَعْنـا عَلـى تَقاريـرِ الفَحـصِ الـجِنائِيِّ لِلمُهاجِميـنَ السِّـتَّةِ لِـمِهْرَجانِ السّـينِما. كافَّـةُ مُؤَشِّـراتِ الطُّفَيْلِيّـاتِ فـي أَجسامِهِم، هِيَ ذاتُها مُعَدَّلاتُ ضَحايا الـحَوادِثِ الأولى".

سَـأَلَ الضّابِـطُ: "وَالقَتْلـى مِـنَ الـمُعتَدينَ فـي حادِثَـةِ السَّـطْوِ الـمَصْرِفِيِّ؟"

أَجابَ الدُّكتورُ غَريبٌ هذِهِ الـمَرَّةَ: "لا جَديدَ. هِيَ نَفسُها".

غَمغَمَ سَمْعانُ حانِقًا: "هذا المُختَرِعُ المَأفونُ تَلاعَبَ بِنا!".

وَضَعَ الدُّكتورُ غَريبٌ ساقًا فَوقَ أُخرى، غَيرَ عابِئٍ بِنَظَراتِ سَمْعانَ: "عَلى الأَقَلِّ، تَمَّ إثباتُ فاعِليَّةِ المادَّةِ الَّتي حُقِنَ بِها المُهاجِمونَ، هذا يَمنَحُنا مَزيَّةً مُهِمَّةً".

قالَتْ نَيْروزُ: "مَن يَقِفُ وَراءَ هذا الأَمرِ يَعرِفُ كَيفَ نُفَكِّرُ، وَلِذلِكَ يَسبِقُنا بِخُطوَةٍ، هذا أَمرٌ يَجِبُ أَلّا يَستَمِرَّ". رَمَقَها سَمْعانُ بِنَظرَةِ استِخفافٍ، فيما وَمَضَ الجَذَلُ بِعُيونِ الدُّكتورِ غَريبٍ، وَنَيْروزُ تَستَدرِكُ: "وَعِلاجُ ذلِكَ لا أَظُنُّهُ بِالصُّعوبَةِ الَّتي يَبْدو عَلَيها".

قالَ سَمْعانُ بِجَفاءٍ: "المَسأَلَةُ الآنَ، كَيفَ نَقبِضُ عَلَيهِ؟". قالَتْ نَيْروزُ: "حَضرَةَ الضّابِطِ، مَن يُحَضِّرُ طُفَيْليّاتٍ كَهذِهِ لا يُمكِنُ أَن يَكونَ أَيَّ طَبيبٍ عادِيٍّ، حَتمًا هُوَ ضَليعٌ في هذا العِلْمِ".

لَمَعَتْ عَيْنا ديمَةَ: "بِالفِعلِ، يَجِبُ عَمَلُ قائِمَةٍ مَبدَئِيَّةٍ لِحَصْرِ كافَّةِ الأَطِبّاءِ المُتَخَصِّصينَ في عِلمِ الطُّفَيْليّاتِ، داخِلَ الدَّولَةِ".

قالَتْ نَيْروزُ: "لَيسَ في نِطاقِ دَولَتِنا فَحَسْبُ، بَل في العالَمِ أَجمَعَ. مَهْما كانَ العَدَدُ كَبيرًا، فَحَتمًا يُمكِنُ تَقْليصُهُ، مَعَ استِمرارِ التَّحقيقاتِ وَتَغذِيَةِ آليَّةِ الاستِبعادِ بِمَزيدٍ مِنَ المُعطَياتِ".

تَقَلْقَلَ سَمْعانُ في جِلسَتِهِ، كَما لَو جَذَبَتْ كَلِماتُ نَيْروزَ اهتِمامَهُ وَتابَعَتْ: "لَيسَ هذا كُلَّ شَيءٍ، فَفي حالِ طُوِّرَتْ هذِهِ الطُّفَيْليّاتُ داخِلَ دَولَتِنا، فَهذا حَتمًا يَحتاجُ إلى أَجهِزَةٍ خاصَّةٍ. يَجِبُ رَصْدُ مَن يَستَورِدُها وَمَن يَبيعُها، وَمَن يَشتَريها. وَبِمُراجَعَةِ كُلِّ الأَسماءِ، اسمًا، اسمًا، أَعتَقِدُ أَنَّنا سَنَصِلُ إلى نَتيجَةٍ".

هَزَّ الضّابِطُ سَمْعانُ رَأسَهُ بِاستِحسانٍ، نَظَرَ نَظرَةً لِنَيْروزَ اختَلَفَتْ عَن نَظيرَتِها لَدى مَجيئِهِ، غَمغَمَ: "إنَّكِ تُذَكِّرينَني بِأَحَدِهِم". أَمّا الدُّكتورُ غَريبٌ، فَاعتَدَلَ في جِلسَتِه، وَقالَ: "كُلُّ هذا جَميلٌ، وَلكِنَّهُ سَيَستَغرِقُ وَقتًا طَويلًا، لا أَظُنُّ الحَوادِثَ سَتَنتَظِرُكُم، حَتّى تَنتَهوا".

غمغَمَتِ الدُّكتورَةُ ديمَةُ: "بِالفِعلِ، قَد يَطولُ البَحثُ عَنِ الفاعِلِ". قالَتْ نَيْروزُ: "عَلى كُلِّ حالٍ، أَظُنُّهُ سَيُعلِنُ عَن نَفسِهِ قَريبًا، أَو بِالأَحْرى؛ عَن طَلَباتِهِ".

الْتَفَتَتْ إلَيها الأَعيُنُ، تابَعَتْ: "أَظُنُّهُ أَعلَنَ بِما فيهِ الكِفايَةُ عَن قُوَّةٍ ما لَدَيهِ، لَم يَتَبَقَّ سِوى الإعلانِ عَن طَلَباتِهِ".

قالَ الضّابِطُ: "يُساوِمُنا؟". قالَتْ نَيْروزُ: "نَعَم، اختِراعٌ بِهذِهِ القُوَّةِ، حَتمًا يَظُنُّ لَهُ ثَمَنًا".

قالَتْ ديمَةُ: "وَمَن يَبْتاعُهُ، تُرى ماذا عَساهُ يَستَفيدُ بِهِ؟".

زَمْجَرَ سَمْعانُ بِنَبرَةٍ خَشِنَةٍ: "الكَثيرَ!"، وَجالَ بِنَظَراتِهِ في وُجوهِهِم: "يَستَطيعُ إعطاءَهُ لِمَنْ يَقومونَ بِالاضطِراباتِ، يَحقُنُ بِهِ اللُّصوصَ، القَتَلَةَ أَو حَتّى الجُنودَ، حينَها يُمكِنُهُمُ القِيامُ بِكُلِّ شَيءٍ".

هَزَّ الدُّكتورُ غَريبٌ رَأسَهُ: "ثَمَّةَ تَحاليلُ إضافيَّةٌ أُريدُ إجراءَها عَلى أَجسادِ الضَّحايا، أَنا في طَوْرِ الأَبحاثِ الأَخيرَةِ لِأُحَدِّدَ أَيَّ النَّواقِلِ العَصَبيَّةِ الأَجدَرِ بِالمُتابَعَةِ وَالرَّصْدِ. أَتَوَقَّعُ أَنَّ لِذلِكَ دَورًا وِقائيًّا مِن نَوعٍ ما".

نَهَضَ سَمْعانُ: "أَعلَمُ أَنَّكُما تَبذُلانِ ما بِوُسْعِكُما، وَلكِنَّ هذا الأَمرَ يُقلِقُ القِياداتِ الأَمنيَّةَ بِشِدَّةٍ". وَصَمَتَ بُرهَةً، بَدا كَالمَهْمومِ، وَهُوَ يَقولُ: "حَدَّثَني رُؤَسائي بِأَنَّ الأَجهِزَةَ الأَمنيَّةَ لِلدَّولَةِ عَلى أَعْلى دَرَجاتِ تَأَهُّبِها بَعدَ وُرودِ مَعلوماتٍ عَن قُدومِ نُخْبَةٍ مِن أَخطَرِ رِجالاتِ العالَمِ، أَتَوْا لِلدَّولَةِ، وَهُم مَوجودونَ هُنا في العاصِمَةِ، لِسَبَبٍ ما. وَعَلى الرَّغمِ مِن عَدَمِ تَحديدِهِ بَعدُ، إلّا أَنَّهُ عَلى الأَغلَبِ، عَلى دَرَجَةٍ مَهولَةٍ مِنَ الخُطورَةِ!".

تَساءَلَتْ نَيْروزُ: "أَخطَرُ رِجالاتِ العالَمِ؟" فيما عَقَدَ الدُّكتورُ غَريبٌ ساعِدَيهِ أَمامَ صَدرِهِ في اهتِمامٍ، فَاستَطرَدَ سَمْعانُ: "حَسْبَما أَخبَرَني القائِدُ الأَمنيُّ، الرَّفيعُ المُستَوى، أَحَدُهُم يُدْعى (إنزو لوكس)، جاءَ ضِمنَ مَجموعَةٍ، يُعتَقَدُ بِانتِمائِها لِلمافيا، وَقاتِلَةٌ مُحتَرِفَةٌ، ذاتُ سُمْعَةٍ دَمَويَّةٍ تُدْعى... لا أَتَذَكَّرُ اسمَها، لكِنَّ لَقَبَها "أوزغول"، وَرَجُلا استِخباراتٍ، مِن شَمالَيِ الكُرَةِ الأَرضيَّةِ وَغَربِها؛ (كلارك أيدن)، وَ (شون جيرالد)".



أَطلَقَ الدُّكتورُ غَريبٌ صَفيرًا طَويلًا، وَقالَ: "مُبتَهِجٌ جِدًّا، لِيَقَظَةِ أَجهِزَتِنا الأَمنيَّةِ". رَمَقَهُ سَمْعانُ بِنَظرَةٍ عَصَبيَّةٍ، ثُمَّ غادَرَ الحُجرَةَ في خُطُواتٍ سَريعَةٍ، لِتَحتَضِنَ ديمَةُ كَفَّ ابنَتِها بِقَلَقٍ، فيما أَطْرَقَ الدُّكتورُ غَريبٌ لِيَعودَ لِدَقِّ الأَرضيَّةِ بِمُقَدِّمَةِ حِذائِهِ في إيقاعٍ رَتيبٍ.

* * *

"ماذا يَعْني تَقديمُ ميعادِ المَزادِ، لِيَكونَ بَعدَ أَقَلَّ مِن خَمسِ ساعاتٍ؟! أَلا يُراعي هذا المَأفونُ -عَلى الأَقَلِّ- فُروقَ التَّوقيتِ؟!". قالَ رَجُلٌ أَشيَبُ الشَّعرِ، رِياضيُّ القَوامِ، وَهُوَ يَقومُ مِن جِلسَتِهِ في حِدَّةٍ، مُحَدِّقًا في شاشَةِ هاتِفِهِ النَّقّالِ.

دارَ في الحُجرَةِ المُكَيَّفَةِ إِلى دَرَجَةِ الصَّقيعِ، يَفْرُكُ طَرَفَ ذَقْنِهِ مُفَكِّرًا: "هذا المُختَرِعُ أَرسَلَ لي رابِطَ بَرنامَجِ مُحادَثاتٍ شَهيرٍ، قالَ: سَنُجري المَزادَ مِن خِلالِهِ، عَبْرَ حَلَقَةٍ نِقاشيَّةٍ لَن يَكونَ مَسموحًا دُخولُها قَبلَ التَّوقيتِ الَّذي حَدَّدَهُ. الإِدارَةُ راجَعَتِ الرّابِطَ، وَجَدَتْهُ سَليمًا غَيرَ مُختَرَقٍ".

وَتَوَقَّفَ مُزيحًا طَرَفَ السِّتارِ، لِيَكشِفَ فُرْجَةً ضَيِّقَةً مِنَ النّافِذَةِ المُغْلَقَةِ مُلقِيًا نَظرَةً إلى الخارِجِ: "خُبَراؤنا قالوا: لَعَلَّ مِن أسبابِ تَقديمِهِ المُفاجِئِ لِلميعادِ، عِلمُهُ أَنَّ تَحديدَ مَواقِعِ أَطرافِ المُحادَثَةِ، سَيَستَغرِقُ وَقتًا أَكبَرَ مِنَ المُتَبَقّي لِبَدْءِ المَزادِ. لَعَلَّهُ فَعَلَ ذلِكَ لِتأمينِ نَفسِهِ".

وَالْتَفَتَ رامِقًا جَوّالَهُ النَّقّالَ: "مَهما يَكُنْ، وَأَيًّا كانَ المَبلَغُ الَّذي يَطلُبُهُ الأَوامِرُ لَدَيَّ واضِحَةٌ، يَجِبُ أَلّا يَكونَ هذا الاختِراعُ مِن نَصيبِ غَيرِنا".

وَوَمَضَتِ الصَّرامَةُ بِعَينَيْه.

* * *

قالَتِ الدُّكتورَةُ ديمَةُ، وَهِيَ تَغسِلُ يَدَيْها بِعِنايَةٍ بَعدَ انتِهائِها مِنَ الفَحصِ: "لا أَشعُرُ بِالارتِياحِ لِوُجودِكِ هُنا يا نَيْروزُ، أَلا تَخافينَ؟!".

قالَتِ ابنَتُها بِنَبرَةٍ مُشاكِسَةٍ: "أَخافُ؟! هذا أَفضَلُ تَدريبٍ عَمَليٍّ لِطَبيبَةٍ شَرعِيَّةٍ ناشِئَةٍ مِثْلي".

قالَتْ ديمَةُ: "لا تُعَدُّ مُوافَقَةُ الضّابِطِ سَمْعانَ عَلى وُجودِكِ كافِيَةً لِأَنْ تَبْقَي هُنا دَومًا! قَضِيَّةُ الطُّفَيْلِيّاتِ لَيسَتْ حاضِرَةً هُنا بِشَكلٍ دائِمٍ".

قالَتْ نَيْروزُ: "بِالمُناسَبَةِ، كُنتُ أُفَكِّرُ، أَلَم تَنعَدِمِ الهَجَماتُ فِعلًا خِلالَ الأَيّامِ الماضِيَةِ؟".

غَمغَمَتْ ديمَةُ: "هذا أَمرٌ مَحمودٌ، لا نُريدُ وُقوعَ مَزيدٍ مِنَ الضَّحايا".

قالَتْ نَيْروزُ: "مَنْ يَقِفُ وَراءَ ذلِكَ، لا رَيْبَ هُوَ بِالذَّكاءِ الكافي، لِيَستَشعِرَ أَنَّ الأَمنَ قَد بَدَأَ يُضَيِّقُ النِّطاقَ حَولَهُ بِالتَّحَرِّياتِ الأَخيرَةِ، لَعَلَّ هذا ما دَفَعَهُ لِلتَّركيزِ أَكثَرَ عَلى هَدَفِهِ الأَساسِيِّ، الانشِغالِ بِبَيعِ اختِراعِهِ، عِوَضًا عَنِ استِعراضِ قُوَّتِهِ".

قالَتْ ديمَةُ: "سَمْعانُ قالَ: إِنَّ الأَجهِزَةَ الأَمنيَّةَ تَتَرَقَّبُ شَيئًا مِثلَ ذلِكَ".

رَفَعَتْ نَيْروزُ مِنكَبَيْها: "تَذَكَّري ما قالَهُ حَضْرَةُ الضّابِطِ، عَن وُرودِ مَعلوماتٍ، عَن نُزولِ نُخبَةٍ مِن أَخطَرِ الرِّجالِ الأَجانِبِ إلى الدَّولَةِ".

سَكَنَتْ ديمَةُ بُرهَةً مُفَكِّرَةً، ثُمَّ هَمَّتْ بِقَولِ شَيءٍ ما، عِندَما انفَتَحَ بابُ حُجرَتِها بَغتَةً، لِيَدلِفَ سَمْعانُ، وَيَقولَ بِنَبرَةٍ خَشِنَةٍ: "لَن تُصَدِّقا الأَسماءَ الَّتي تَوَصَّلْنا إِلَيها، بَعدَ تَصفِيَتِها مِنَ المُشتَبَهِ بِهِم!".

* * *



"حَيثُ كُلُّ الأَعداءِ"

عَنْبَرٌ شَديدُ الاتِّساعِ، قَديمٌ، مُلحَقٌ بِأَحَدِ مَصانِعِ الصُّلْبِ العَتيقَةِ المُباعَةِ مُؤَخَّرًا. المِنطَقَةُ بِرُمَّتِها مَهجورَةٌ غَيرُ مَطروقَةٍ.

كانَ هذا ما وَرَدَ لِذِهنِ "كلارك"، الرَّجُلِ الأَشْيَبِ الشَّعرِ، الرِّياضيِّ القَوامِ وَهُوَ يَدلِفُ لِلعَنبَرِ المَهجورِ، مُتَجاوِزًا بَوّابَتَهُ المُنزَلِقَةَ الثَّقيلَةَ. كانَ المَكانُ يَعُجُّ بِمُخَلَّفاتِ آلاتٍ هالِكَةٍ، وَبَقايا مُخَزَّنَةٍ مُنذُ سَنواتٍ. السَّقفُ مائِلٌ مُحَدَّبٌ، عالٍ يَتَجاوَزُ الاثنَيْ عَشَرَ مِترًا. جالَ "كلارك" بِنَظَراتِهِ في المَكانِ، لَم يَكُنْ مُسَلَّحًا بِأَكثَرَ مِن مُسَدَّسٍ بِخَزينَةٍ مُزدَوَجَةٍ. هُوَ هُنا لِاستِلامِ شِحنَةِ الطُّفَيْليّاتِ البَيولوجيَّةِ، بَعدَ أَن رَسا عَلَيهِ المَزادُ، مُكَلِّفًا دَولَتَهُ مِليارًا كامِلًا مِنَ الدّولاراتِ.

نَظَرَ لِساعَةِ مِعْصَمِهِ، يُفتَرَضُ أَن يَظهَرَ المُختَرِعُ الآنَ. سَمِعَ صَريرًا، الْتَفَتَ لِلبَوّابَةِ المُنزَلِقَةِ، لَمَحَ رَجُلًا نَحيلًا قادِمًا، خُطُواتُهُ مُضطَرِبَةٌ، في يَدِهِ حَقيبَةٌ فِضِّيَّةٌ مُحكَمَةُ الغَلْقِ، تُشبِهُ نَظيرَتَها المُستَخدَمَةَ في نَقْلِ العَيِّناتِ الطِّبِّيَّةِ.



هَل يُمكِنُ أَن يَكونَ هذا هُوَ الـمُختَرِعُ الـمَجهولُ؟

هَـرْوَلَ الرَّجُـلُ إلَيـهِ، وَبِصَـوتٍ يَرتَعِـشُ اضطِرابًـا: "أَنـتَ كلارك؟". أَوْمَـأَ مُحَدِّثُـهُ بِرَأسِهِ إيجابًا، بادَرَهُ النَّحيلُ: "حَوَّلتَ الـمَبلَغَ لِـجُزُرِ بِرْمودا؟".

قـالَ "كلارك": "أَرِنـي مُـحتَوى الـحَقيبَةِ أَوَّلًا". رَفَـعَ النَّحيـلُ الـحَقيبَةَ بِنَفـادِ صَبـرٍ إلـى أَقـرَبِ طاوِلَـةٍ، فَتَحَهـا، انبَعَـثَ مِنها بُخـارُ التَّبريـدِ. أَمعَـنَ "كلارك" النَّظَـرَ... سِـتَّ عَشْـرَةَ قـارورَةً أُسـطُوانيَّةً مُسـتَقِرَّةً بِالدّاخِـلِ، داخِلَهـا عَـدَدٌ لا يُـحْصى مِـنَ العَوالِـقِ، تَسـبَحُ فـي سـائِلٍ رائِـقٍ. أَخـرَجَ "كلارك" جِهـازًا صَغيـرًا زَوَّدَهُ بِـهِ خُبَـراءُ دَولَتِـهِ، قَرَّبَـهُ مِـنَ القَواريـرِ، تَذَبـذَبَ ضَـوءٌ أَصفَـرُ فـي قِمَّـةِ الـجِهازِ لِبِضعِ ثَوانٍ، ثُمَّ استَقَرَّ عِندَ اللَّونِ الأَخضَرِ.

أَعـادَ "كلارك" الـجِهازَ إلـى جَيْـبِ سُـتْرَتِهِ، وَهُـوَ يُشـيرُ إلـى مُـحَدِّثِهِ بِـإِغلاقِ الـحَقيبَةِ، ثُـمَّ سَـحَبَ هاتِفَـهُ النَّقّـالَ... فَتَـحَ أَحَـدَ التَّطبيقـاتِ، وَضَـعَ رَقْـمَ البِليـونِ دولارٍ، ثُـمَّ ضَغَـطَ زِرَّ التَّحويـلِ، وَجَمجَـمَ: "الـمَبلَغُ الآنَ فـي هامِلتـون"، وَمَـدَّ يَـدَهُ لِيَتَنـاوَلَ الـحَقيبَةَ، إلّا أَنَّ حامِلَهـا رَفَـعَ سَـبّابَتَهُ مُـحَذِّرًا بَدا كَما لَو يُصْغي لِشَيءٍ ما. دَقَّقَ "كلارك" النَّظَرَ إلى أُذُنِهِ

لَـمَحَ بِالـكادِ سَمّاعَةً صَغيـرَةً جِدًّا تَـخرُجُ مِـن صِوانِها. طَبعًـا لَـم يَكُـنْ هـذا لِيَكـونَ الـمُختَرِعَ، وَقَبـلَ أَن يَنفُـثَ عَصَبيَّتَـهُ، لانَـتْ مَلامِـحُ الرَّجُـلِ لِيُناوِلَـهُ الـحَقيبَةَ.

زَمجَـرَ "كلارك": "أَخبِرْني رُموزَ فَتْحِهـا!". أَشـارَ النَّحيـلُ إلـى مُرَبَّـعٍ صَغيـرٍ فـي أَعْلاهـا: "ضَـعْ إبهامَـكَ هُنـا". طاوَعَـهُ "كلارك" فـي تَشَـكُّكٍ، أَصـدَرَتِ الحَقيبَـةُ تَكَّـةً خافِتَـةً. وَضَـعَ النَّحيـلُ سَـبّابَتَهُ مَكانَـهُ، وَحـاوَلَ فَتْـحَ الحَقيبَـةِ. لَـم تُطاوِعْهُ. أَشـارَ لِـ "كلارك "أَن يَفتَحَـها، وَضَـعَ سَـبّابَتَهُ، انْفَـرَجَ مِزْلاجُهـا فـي الحـالِ. قـالَ الرَّجُلُ: "لَقَد أُعيدَ ضَبطُها لِلتَّوِّ، مِنَ الآنِ لَن يَفتَحَها أَحَدٌ سِواكَ".

وَاسـتَدارَ الرَّجُـلُ مُهَـروِلًا، كَمـا لَـو تَـخَلَّصَ أَخيـرًا مِـن مُهِمَّـةٍ ثَقيلَـةٍ. تابَعَـهُ "كلارك" حَتّـى غـادَرَ، ثُـمَّ رَفَـعَ الـحَقيبَةَ يَتَأَمَّلُها فـي إكبـارٍ، فَجـأَةً، الْتَقَطَـتْ أُذُنـاهُ الـخَبيرَتانِ صَـوتَ تَكَّـةٍ زُنْبُرُكيَّـةٍ، تَكَّـةٍ يَعلَـمُ مَدلولَـها جَيِّـدًا، وَقَبـلَ أَن يَرتَـدَّ إلَيـهِ طَرْفُـهُ، كانَ قَـد قَبَـضَ عَلـى الـحَقيبَةِ واثِبًـا مِـن مَكانِـهِ، لِتَسـتَقِرَّ في مَوضِعِهِ رَصاصَةٌ، أَعقَبَها زَخّاتٌ مُتَوالِيَةٌ مِنَ الرَّصاصاتِ!

* * *

أَطَـلَّ رَجُـلٌ مُـمتَلِئُ الـجِسمِ، كَثيفُ شَـعرِ السّـاعِدَينِ، واندَفَعَ يُلاحِـقُ "كلارك" الَّـذي وَثَـبَ وَراءَ آلَـةٍ كَبيـرَةٍ لِتَقطيـعِ الـحَديدِ، خلـفَ إفريـزٍ مَعدِنـيٍّ مرتَفِـعٍ. كانَ الرَّجُـلُ يَـحمِلُ مِدْفَعًـا رَشّاشًـا، ويُطلِـقُ الرَّصاصـاتِ فـي سَـخاءٍ، وهـو يَقـولُ باستِهْتارٍ: "مَهْمـا أَطلَقـتُ مِـن رَصاصـاتٍ، فَلَـن تَبلُـغَ تَكلِفَتُهـا مِليـارَ دولارٍ، مِثلَ الَّتي دَفَعَتْها دَولَتُكَ لِلتَّوِّ!".

تَقَوْقَـعَ "كلارك" فـي جِلسَـتِهِ فـي غَضَـبٍ مَكظـومٍ، أَغلَـقَ عَينَيـهِ بُرهَـةً، غَيـرَ مُبالٍ بِالرَّصاصـاتِ الـمُنهَمِرَةِ حَولَـهُ، ثُـمَّ رَفَـعَ جَفْنَيـهِ بَعـدَ أَن لانَـتْ مَلامِـحُهُ لِتُطِـلَّ مِـن حَدَقَتيـهِ نَظـرَةٌ تَفيـضُ وَعيـدًا. وَدونَمـا إضاعَـةِ ثانِيَـةٍ إضافيَّـةٍ قَـذَفَ الـحَقيبَةَ تَـحتَ الماكينَـةِ الثَّقيلَـةِ، فـي نَفـسِ الوَقـتِ الَّـذي استَـلَّ فيـهِ مُسَدَّسَهُ، وَهُوَ يُطلِقُ عَلى مُطْلِقِ النّارِ.

"إنـزو لوكـس!". قـالَ "كلارك" مُتَبَرِّمًـا، وَرَصاصَتُـهُ تَنطَلِـقُ مِـن ماسـورَةِ مُسَدَّسِهِ.



رَصاصَةٌ أَصابَتِ الشَّرْيانَ الوِداجيَّ الأَيمَنَ لِرَقَبَةِ "إنْزو"، الَّذي تَرَكَ مِدفَعَهُ الرَّشّاشَ يَتَهاوى، لِيَضَعَ يَدَيهِ فَوقَ جانِبِ رَقَبَتِهِ مَذعورًا، مُحاوِلًا عَبَثًا إيقافَ النَّزيفِ المُتَدَفِّقِ، قَبلَ أَن تَخورَ قُواهُ سَريعًا، وَيَسقُطَ مِن عَلٍ.

في هذِهِ اللَّحَظاتِ، كانَ "كلارك"- مِن زاوِيَتِهِ - يَمسَحُ المَكانَ بِنَظَراتِهِ مُعيدًا تَقْييمَ الوَضعِ، لِيَجِدَ نَفسَهُ يَثِبُ مِن مَوقِعِهِ، لِتَعبُرَ المَكانَ الَّذي كانَ يَشغَلُهُ قَبلَ ثانِيَةٍ، رَصاصَةٌ أُخرى.

بِلَمْحِ البَصَرِ، حَدَّدَ "كلارك" مَصدَرَها. وَجَدَ رَجُلًا قَريبًا مِن سيماءِ الرَّجُلِ الَّذي هَوى قَبلَ لَحَظاتٍ، لكِنَّ هذا يَحمِلُ بُندُقيَّةً قَنّاصَةً. قالَ وَهُوَ يُدَقِّقُ النَّظَرَ: "هذا جَيِّدٌ، لَيسَ لَدَينا ضُيوفٌ جُدُدٌ، آلُ "لوكاس" جَميعُهُم ذاتُ الطِّرازِ"، حَدَّدَ طِرازَ البُندُقيَّةِ، عَلِمَ الزَّمَنَ اللّازِمَ بَينَ إطلاقِ كُلِّ رَصاصَةٍ وَأُخرى، وَدونَما تَرَدُّدٍ، هَبَّ مِن مَوقِعِهِ، مُتَّخِذًا مَسارًا مُتَعَرِّجًا بَحْثًا عَن نُقطَةِ هُجومٍ مُناسِبَةٍ.

في هذِهِ الأَثناءِ، كانَ القَنّاصُ قَد حاصَرَ "كلارك"، وَوَضَعَ سَبّابَتَهُ عَلى الزِّنادِ، وَكَتَمَ أَنفاسَهُ، تَوطِئَةً لِلإطلاقِ... وَانطَلَقَتِ الرَّصاصَةُ.

لَـم تَنطَلِـقْ مِـن فُوَّهَـةِ بُندُقيَّـةِ القَنّـاصِ، بَـل أُطلِقَتْ عَلَيـهِ، صَوْبَ رَأسِـهِ مُباشَـرَةً مِـنَ المَسـافَةِ صِفـرٍ، لِيَظهَـرَ مِـن وَراءِ كَتِفِـهِ رَجُـلٌ حَليـقٌ، قاسـي المَلامِـحِ يَبتَسِـمُ ابتِسـامَةً بـارِدَةً، وَأَصابِعُـهُ تَتَخَلَّـلُ شَـعرَهُ الذَّهَبـيَّ النّاعِـمَ مُغَمغِمًـا في ثِقَةٍ وَخُيَلاءَ: "شَرَفُ الحُصولِ عَلى الحَقيبَةِ سَيَكونُ لِـ"شون" وَحْدَهُ".

وَفي الأَسفَلِ، كانَ "كلارك" يَـدورُ فـي حَـذَرٍ، شاهِرًا مُسَدَّسَـهُ، يَتَفَقَّـدُ العَنبَرَ. خُيِّلَ إِلَيـهِ سَـماعُ خُطُـواتٍ. أَنصَـتَ، لَـم يَـجِدْ سِـوى سُـكونٍ تـامٍّ، عَبَـسَ فـي تَوَتُّرٍ، وَما يَدْري، إلّا وَوَجَدَ ذا الشَّعرِ الذَّهَبيِّ عِندَ رَأسِهِ!

"شـون جيرالـد"، ذو الوَجـهِ الـحَليقِ فـي مَوقِـفٍ مُتَمَكِّنٍ تَـمامًا. اتَّساعُ عَينَي "كلارك"، وَأَثَـرُ الـمُفاجَأَةِ عَلَيـهِ، كُلُّ ذلِـكَ جَعَـلَ "شـون" عَلـى ثِقَـةٍ تامَّـةٍ، وَهُـوَ يُـحَرِّرُ رَصاصَتَـهُ، لِتَنطَلِـقَ عَبْـرَ ماسـورَةِ مُسَدَّسِـهِ، بِثَلاثَـةِ أَضعـافِ سُـرعَةِ الصَّوتِ، لِتَتَّجِهَ مُباشَرَةً نَحوَ جَبهَةِ غَريمِهِ.

الفـارِقُ، وَالَّـذي يُمَيِّـزُ "كلارك" دائِمًـا، أَنَّـهُ يُـحسِنُ الاسـتِفادَةَ مِـن أَخطـاءِ أَعدائِـهِ. الابتِسـامَةُ الخاطِفَـةُ لِـ"شـون"، كانَـتْ كُلَّ مـا يَـحتاجُ إِلَيـهِ "كلارك" لِيَترُكَ مَكانَهُ، وَيُـحيطَ مِعْصَمَ غَريمِهِ بِكِلتا يَدَيهِ، وَيُثنِيَهُ بِزاوِيَةٍ حَرِجَةٍ لِيَنكَسِرَ بِها مِعصَمُهُ، وَتَطيشَ مَعَها الرَّصاصَةُ.

لكِـنَّ "شـون" لَـم يَتَأَثَّـرْ لَـحظَةً واحِـدَةً، إِذْ عاجَـلَ "كلارك" بِضَربَـةٍ قاصِمَـةٍ بِمِرفَقِهِ، خَلَعَتْ فَكَّهُ، أَو كادَتْ، غَيرَ مُبالٍ بِمِعصَمِهِ الـمَكسورِ.

لِيَنطَلِـقَ الغَريمـانِ بَعدَهـا فـي سِـجالٍ مِـنَ الضَّرَبـاتِ السّـاحِقَةِ الـمُتَلاحِقَةِ بِالأَقـدامِ وَالقَبْضـاتِ وَالـرُّؤوسِ، طـارَتْ فيـهِ أَسـنانٌ، وَتَحَطَّمَـتْ ضُلـوعٌ وَتَوَرَّمَتْ وُجـوهٌ، لَـم يَـتَوَقَّفا إِلّا حـينَما ارتَفَعَ تَـصفيقٌ رَتيبٌ، أَنبَأَهُما بِوُجودِ طَرَفٍ ثـالِثٍ.

الْتَفَتـا إِلَيـهِ فـي حِـدَّةٍ فـي آنٍ واحِـدٍ، لِتُقبِـلَ عَلَيهِـمُ امـرَأَةٌ شـابَّةٌ، فـي خُطُـواتٍ مُستَرخِيَةٍ، عَلـى جانِبَـيْ وَجهِهـا يَنسَـدِلُ شَـعرٌ أَحمَـرُ ناعِـمٌ، وَعَلـى مَلامِـحِها نَظـرَةٌ عابِثَـةٌ، وَفـي يَدِهـا اليُسْـرى تَتَلاعَـبُ بِحَـرَكاتٍ اسـتِعراضِيَّةٍ مُتْقَنَـةٍ. بَـدا مِـن فَـرْطِ إِتقانِهـا أَنَّهـا تَفعَـلُ ذلِـكَ لا شُـعوريًّا، بِخَنْجَـرٍ مُسَـنَّنٍ مُفرَغٍ، يَتَنَقَّلُ بَينَ أَصابِعِها الرَّفيعَةِ، في سَلاسَةٍ مُفرِطَةٍ.

"لُطْفًـا، لَـم أَوَدَّ مُقاطَعَـةَ قِتالِكُمـا الـمُمِلِّ، لكِنّـي سَـئِمتُ مِـنَ انتِظـارِ تَقطيعِكُما أَحدُكُما الآخَرَ".



وَلِأَنَّ ما يُمَيِّزُ "كلارك" دائِمًا، أَنَّهُ يُحسِنُ الاستِفادَةَ مِن أَخطاءِ أَعدائِهِ فَانتِباهُ غَريمِهِ تِجاهَ "أَلْتْشين أوزغول" كانَ كُلَّ ما يَحتاجُ إِلَيهِ "كلارك" لِيَترُكَ مَكانَهُ، وَيُحيطَ عُنُقَ "شون" بِكِلْتا يَدَيهِ، وَيَثْنِيَها بِزاوِيَةٍ حَرِجَةٍ لِتَنكَسِرَ بِصَوتٍ مَسموعٍ، وَيَخُرَّ غَريمُهُ بِلا حِراكٍ.

لَمَعَتْ نَظرَةٌ مَخبولَةٌ في عَيْنَيْ "أَلْتْشين"، وَهِيَ تَبتَسِمُ في جَذَلٍ لِـ"كلارك" المُنهَكِ، لِتَسحَبَ مِن جانِبِ بِنطالِها خِنْجَرًا آخَرَ، وَتَتَلاعَبَ بِهِما في يَدَيْها، كَأَنَّهُما جُزءٌ مِن أَطرافِها، قائِلَةً: "مَرْحى!"، وَتَنْحَني بِحَرَكَةٍ مَسرَحِيَّةٍ: "الجَدُّ كلارك، يَتَعَيَّنُ عَلَيَّ إِخبارُكَ أَنَّني أَحَدُ كِبارِ مُعْجَبيكَ. مُهِمٌّ لِلغايَةِ أَن تَعلَمَ ذلِكَ، قَبلَ أَن أَتَحَرَّكَ".

وَلِأَنَّ ما يُمَيِّزُ "كلارك" دائِمًا، أَنَّهُ يُحسِنُ الاستِفادَةَ مِن أَخطاءِ أَعدائِهِ فَانحِناءَةُ "أَلْتْشين"، وَأَداؤُها المَسرَحِيُّ، كانَ كُلَّ ما يَحتاجُ إِليه، لِيَنْقَضَّ عَلى رَأسِها، و... لكِنَّ رَأسَها المُنحَنِيَ لَم يَكُنْ ما يَنتَظِرُهُ، بَل ساقَيْها! إِذْ طَوَّقَتْ عُنُقَهُ هُوَ، وَطَوَّحَتْ جَسَدَهُ لِلأَمامِ، لِثَلاثَةِ أَمتارٍ كامِلَةٍ، لِتَستَعيدَ بَعدَها وَقْفَتَها القِتالِيَّةَ، وَهِيَ تَنتَظِرُهُ في جَذَلٍ.



تَدَحْرَجَ "كلارك" مُصطَدِمًا بِعَدَدٍ مِنَ الأَخشابِ وَقِطَعِ الحَديدِ، قَبلَ أَن يَهُبَّ واقِفًا عَلى قَدَمَيهِ، في وَضْعٍ قِتاليٍّ مُتَحَفِّزٍ، لَم يَستَمِرَّ سِوى لِثَوانٍ، قَبلَ أَن يُعاوِدَ الانقِضاضَ عَلَيها، انقِضاضَةً أَشَدَّ عُنْفًا.

استَقبَلَتْهُ "أَلْتْشين" بِطَعْناتٍ مُتْقَنَةٍ بِكِلتا يَدَيْها، تِجاهَ كافَّةِ المَواضِعِ القاتِلَةِ في جَسَدِهِ... تَفادى أَكثَرَها، وَصَدَّ الباقِيَ بِساعِدَيهِ بِقُوَّةٍ وَتَركيزٍ شَديدَينِ، لِيَتَراجَعَ بَعدَها لاهِثًا، وَإِنْ لَم يَجعَلْها تَغيبُ عَن عَينَيْهِ قَطُّ. كانَ عَقلُهُ يَعمَلُ بِأَقْصى طاقَتِهِ، كَيفَ عَساهُ يَصِلُ إِلى مُسَدَّسِهِ المُلْقى عَلى بُعْدِ أَمتارٍ. كَما لَو عَلِمَ يَقينًا استِحالَةَ التَّغَلُّبِ عَلَيها في تَلاحُمٍ مُباشَرٍ.

كانَ هذا قَبلَ أَن تَلمَعَ في عَقلِهِ فِكرَةٌ ما... وَبِلا تَرَدُّدٍ، نَفَّذَها.

كانَتْ "أَلْتشين" تَهُمُّ بِالانقِضاضِ عَلَيهِ، عِندَما فوجِئَتْ بِهِ يَهرُبُ مِن أَمامِها. لَم تَستَوعِبِ الأَمرَ لِلَحظَةٍ، ثُمَّ ابتَلَعَتْ ذلِكَ، وَتابَعَتْ مُطارَدَتَهُ بِإِصرارٍ. كانَ "كلارك" يَتَسَلَّقُ بِخِفَّةٍ سِلسِلَةً حَديديَّةً مَجْدولَةً تَدَلَّتْ مِنَ السَّقْفِ، جِوارَ رَفٍّ مَعدِنيٍّ مُعَلَّقٍ، مُسَوَّرٍ بِإِفريزٍ شَبَكيٍّ، يَعلوهُما بِسِتَّةِ أَمتارٍ، يُستَخدَمُ في تَخْزينِ العُدَدِ وَالأَدَواتِ، كَما هُوَ ظاهِرٌ.

سَبَقَ إلَيهِ "كلارك"، وَتَبِعَتْهُ "أَلْتْشين" وَثْبًا. الْتَقَطَتْ يَدُهُ مِطْرَقَةً حَديديَّةً ثَقيلَةً، طَوَّحَ بِها بِيَدِهِ لِلوَراءِ لِيُكسِبَها أَكبَرَ قُوَّةٍ مُمكِنَةٍ، في الوَقتِ الَّذي كانَتْ فيهِ غَريمَتُهُ تَنْقَضُّ عَلَيهِ مُطلِقَةً صَرْخَةً قِتاليَّةً مَمْطوطَةً، وَنَصْلا خِنْجَرَيْها يَشُقّانِ الهَواءَ إلَيهِ. وَأَصابَتْ مِطرَقَتُهُ هَدَفَها، لَيسَ "أَلْتشين" وَلكِنِ المِشْبَكَ الَّذي يَربُطُ أَحَدَ جانِبَي الرَّفِّ الحَديديِّ بِالحائِطِ المَعدِنيِّ وَبِلَمْحِ العَينِ وَثَبَ "كلارْك"، لِيَقبِضَ بِكِلْتا قَبضَتَيهِ عَلى سِلسِلَةٍ مُتَدَلِّيَةٍ أُخرى مِنَ السَّقْفِ، وَيَتَّجِهَ بِها بَعيدًا عَنِ الرَّفِّ الَّذي اختَلَّ تَوازُنُهُ وَهَوى بِـ "أَلْتشين"، وَكُلِّ ما عَلَيهِ مِن مَوادَّ حَديديَّةٍ ثَقيلَةٍ، قَبلَ أَن يَعجَزَ المِشْبَكُ الآخَرُ عَنِ احتِمالِ وَزْنِ الرَّفِّ، لِيَسقُطَ بِالكامِلِ مِنَ ارتِفاعِ سِتَّةِ أَمتارٍ، في صَخَبٍ شَديدٍ، نَجَمَ عَنهُ تَداعي عَدَدٍ مِنَ الدَّواليبِ العالِيَةِ حَولَها، لِتَسقُطَ بِدَورِها مُنكَفِئَةً فَوقَها، بِكُلِّ ما حَوَتْهُ مِن مَوادَّ ثَقيلَةٍ.

سارَعَ "كلارك" إلى مُسَدَّسِهِ. حَرَّرَ قُفْلَ الأَمانِ، وَهَرَعَ إلى مَوقِعِ سُقوطِ "أَلْتْشين"، شاهِرًا سِلاحَهُ في تَحَفُّزٍ وَاستِعدادٍ.

وَجَدَ في انتِظارِهِ تَلًّا كَبيرًا مِنَ المُخَلَّفاتِ المَعدِنيَّةِ، وَطِئَ عَدَدًا مِنَ المَسامير وَبَقايا حادَّةٍ لا حَصْرَ لَها مِن مُخَلَّفاتِ قَطْعِ الحَديدِ، حينَها سَمِعَ النَّفيرَ المُمَيَّزَ لِسَيّاراتِ الشُّرطَةِ. "لا أَظُنُّها تَنْجو مِن كُلِّ ذلِكَ". جَمْجَمَ "كلارك" مُتَوَتِّرًا، وَهُوَ يَعودُ إلى مَكانِ الحَقيبَةِ. جَثا عَلى رُكْبَتَيهِ سَحَبَها بِجَذْبَةٍ خاطِفَةٍ، وَهَرَع فارًّا مِنَ المَكانِ، الَّذي لَم تَمْضِ دَقائِقُ حَتّى كانَ يَعُجُّ بِعَشَراتٍ مِن رِجالِ الشُّرطَةِ.

* * *

دَلَفَ "كلارك" لِلشَّقَّةِ الآمِنَةِ... أَوْصَدَ البابَ جَيِّدًا، جَلَسَ إلى أَقرَبِ أَريكَةٍ وَضَعَ الحَقيبَةَ فَوقَ رُكْبَتَيهِ، ناظِرًا إلَيها في وُجومٍ. تَمْتَمَ: "يا لَهُ مِن ثَمَنٍ فادِحٍ لِلحُصولِ عَلَيكِ!". أَرْخى رَقَبَتَهُ لِلخَلفِ مُحَدِّقًا لِلسَّقفِ، استَرْخى في جِلسَتِهِ فَوقَ الأَريكَةِ المُريحَةِ. داعَبَ النُّعاسُ جَفْنَيْهِ بِقُوَّةٍ، كادَ أَن يَستَسلِمَ لَهُ، لَوْلا أَنِ اعتَدَلَ رانِيًا لِلحَقيبَةِ، اختَلَسَ نَظرَةً مِن ساعَةِ مِعصَمِهِ، وَغَمغَمَ: "العُمَلاءُ قادِمونَ لِاستِلامِكِ بَعدَ سِتٍّ وَسِتّينَ دَقيقَةً، لا بَأْسَ مِن إلْقاءِ نَظرَةٍ أُخرى عَلَيكِ!". وَوَضَعَ إبهامَهُ فَوقَ المَكانِ المُخَصَّصِ. انْفَرَجَ مِزْلاجُ الحَقيبَةِ... فَتَحَها، لِتَنفَجِرَ بِهِ في انفِجارٍ مَهولٍ، أَوْدى بِهِ، وَبِالشَّقَّةِ كُلِّها.

"عَواقِبُ"

راقَبَ شَخصٌ يَرْتَدي مِعطَفًا أَبيَضَ يَصِلُ إلى الرُّكْبَتَينِ ما يَنقُلُهُ التِّلفازُ مِن تَقريرٍ إخباريٍّ عَنِ انفِجارٍ ما زالَ مَجهولَ المَصدَرِ بِإحدى الشُّقَقِ. أَنصَتَ لِتَأكيدِ مَصرَعِ قاطِنِها الأَجنَبيِّ. أجفَلَ لَدى سَماعِهِ النَّبَأَ. أَطْفَأَ التِّلفازَ، وَاتَّجَهَ إلى حاسوبِهِ النَّقّالِ، تَجَمَّدَ بُرهَةً، ثُمَّ فَتَحَ قَناةَ بَرْنامَجِ دَردَشَةٍ، هِيَ وَسيلَةُ اتِّصالِهِ السِّرِّيَّةُ مَعَ جِهازِ الاستِخباراتِ الَّذي انتَمى لَهُ القَتيلُ. كَتَبَ الرِّسالَةَ سَريعًا:

»ما جَرى كانَ غَيرَ مُتَوَقَّعٍ وَلا كانَ مَقصودًا. أُقِرُّ أَنَّني زَوَّدتُ الحَقيبَةَ بِقُنبُلَةٍ؛ لِأَنَّني تَوَقَّعتُ أَنَّ أَطرافَ المَزادِ لَن يَكونوا لِيَقْبَلوا بِنَتيجَتِهِ. وَلِأَنَّني لَم أَتَصَوَّرْ أَن يَنْجُوَ عَميلُكُم، فَقَد زَوَّدْتُها بِقُنبُلَةٍ كَي لا يَحوزَها طَرَفٌ لَم يَدفَعْ ثَمَنَها. أَنا لا أَتَلاعَبُ بِكُم، فَحَياتي عَلى المِحَكِّ، وَلا أَتَوَقَّعُ أَن تَترُكوني وَشَأْني حالَ سَرَقتُ أَموالَكُم، أَو تَعَمَّدتُ قَتْلَ عَميلِكُم. أَرْجو أَن يوضَعَ في الاعتِبارِ أَنَّني مَن بادَرَ بِالاتِّصالِ. وَكَبادِرَةِ وُدٍّ مِنّي لَن تَكونَ الحَقيبَةُ تَحتَوي على نَفسِ الكَمِّيَّةِ السّابِقَةِ، بَل على ضِعْفِها وَكَما هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيهِ، سَتَكونُ صِيَغُ إعداداتِ تَحضيرِ الطُّفَيْليّاتِ المُسَيطِرَةِ داخِلَ الحَقيبَةِ، كَما هُوَ الحالُ في المَرَّةِ السّابِقَةِ. أَمّا المَكانُ وَالزَّمانُ، فَسَأَترُكُ لَكُم تَحديدَهُما. بِانتِظارِ رَدِّكُم».

وَضَغَطَ الشَّخصُ ذو المِعطَفِ زِرَّ الإرسالِ. لَبِثَ واجِمًا، يَرقُبُ شاشَةَ حاسوبِهِ، ثُمَّ حانَتْ مِنهُ الْتِفاتَةٌ لِلقاعَةِ البارِدَةِ الجالِسِ فيها. كانَتْ تَعُجُّ بِالحَواسيبِ، كُلٌّ مِنها مُتَّصِلٌ بِقَواريرَ أُسطُوانيَّةٍ كَبيرَةٍ، يُقارِبُ طولُها مِئَةً وَخَمسَةً وَعِشرينَ سَنتيمِترًا، مُنتَصِبَةً عَلى مَسافاتٍ مُتَباعِدَةٍ، يَسْبَحُ داخِلَها عَدَدٌ لا يُحصى مِنَ العَوالِقِ الدَّقيقَةِ، في وَسَطٍ مِنَ الماءِ الرّائِقِ. عادَ بِوَجهِهِ إلى شاشَةِ حاسوبِهِ، لَم يَتَلَقَّ رَدًّا سَريعًا كَما تَعَوَّدَ. شَعَرَ أَنَّ ذلِكَ نَذيرُ سوءٍ، فَقامَ مِن مَجلِسِهِ، وَبَدَأَ يَجمَعُ حاجيّاتِهِ الضَّروريَّةَ عَلى عَجَلٍ. "يَجدُرُ بِيَ العَودَةُ إلى مَكاني المُعلَنِ، يَجِبُ أَلّا أَكونَ مَوجودًا حالِيًا بِهذا المَكانِ، لَيسَ قَبلَ خَمسَةَ عَشَرَ يَومًا عَلى الأَقَلِّ، رَيْثَما أَرى إلى ماذا سَتَستَقِرُّ عَلَيهِ الأَوضاعُ!". جَمجَمَ بِنَبرَةٍ مُضطَرِبَةٍ.



وَخَـرَجَ إلـى عَجـوزٍ جـاوَزَتِ السَّـبعينَ، صَمّـاءَ بَكْمـاءَ، كانَـتْ تَـجلِسُ عَلـى مَقعَـدٍ جِـوارَ الـمَدخَلِ الدّاخِلـيِّ لِعَرينِـهِ. جَعَـلَ يُلَـوِّحُ لَـها بِيَدَيـهِ بِلُغَـةِ الإشـارَةِ، وَهِـيَ تومِـئُ بِرَأسِـها فـي فَهْـمٍ تـامٍّ. مـا إنِ انتَهـى حَتّـى نَهَضَـتْ لِتُنَفِّذَ تَعليماتِهِ.

خَـرَجَ ذو الـمِعطَفِ موصِدًا البـابَ خَلفَـهُ، مُغَمغِمًا: "يَـجِبُ أَلّا يَصِـلَ أَحَـدٌ قَـطُّ إلـى هـذا الـمَكانِ"، وَعِندَمـا ابتَعَـدَ بِسَـيّارَتِهِ عَـن مَعمَلِـهِ السِّـرّيِّ، لَـم يَكُنْ لِيَخطُرَ بِبالِهِ، أَنَّ نَجاحَ تَـجارِبِهِ، فاقَ أَقْصى تَوَقُّعاتِهِ.

* * *

ذَرَعَـتْ نَيْـروزُ غُرفَتَهـا، عاقِـدَةً كَفَّيْهـا خَلـفَ ظَهرِهـا، وَقَـد شَـغَلَها التَّفكيـرُ: "أَربَعَـةُ أَسـماءٍ ذَكَرَهُـمُ الـمُفَتِّشُ سَـمْعانُ: نادِيَـةُ حليـمٌ، حَلا مَكْـرَمٌ، ظافِـرٌ حليمـش، و... غَريـبٌ رَشْدانُ"، وَتَوَقَّفَـتْ لِتَعبَـثَ بِخُصُلاتِ شَـعرِها بِأَصابِعِهـا: "الضّابِـطُ قـالَ إنَّ أَربَعَتَهُـم هُـم مَـن تَبَقّـى مِـمَّنِ انْطَبَقَـتْ عَلَيهِـم كُلُّ الـمَعاييرِ، الَّتـي أَهَمُّهـا؛ شِـراءُ مَـوادَّ وَأَجهِـزَةٍ مَعمَلِيَّـةٍ، مِـن ضِمـنِ استِخداماتِها الاستِعمالُ في مَجالِ مَزارِعِ الطُّفَيْلِيّاتِ".

وَجَلَسَتْ أَمامَ حاسوبِها المَكتَبيِّ... "مَن يَقِفُ وَراءَ هذا الأَمرِ يَعرِفُ كَيفَ نُفَكِّرُ، وَلِذلِكَ يَسبِقُنا بِخُطوَةٍ"، وَمَضَتِ العِبارَةُ الَّتي قالَتْها سابِقًا بِذهنِها. وَجَدَتْ نَفسَها تَضَعُ اسمَ الدُّكتورِ غَريبٍ رَشْدانَ في خانَةِ بَحْثٍ مُتَخَصِّصٍ في مُتَصَفِّحِها، جاءَتْها نَتائِجُ أَكثَرَ مِمّا تَوَقَّعَتْ، وَضَعَتْ دالّاتٍ أَكثَرَ تَحديدًا في بَحْثِها، لَم يَبْدُ الرِّضا على وَجهِها، كَرَّرَتِ البَحثَ، وَلكِن بِاللُّغَةِ الإنجليزيَّةِ هذِهِ المَرَّةَ، تَراصَّتِ النَّتائِجُ أَمامَها.

جَذَبَ أَكثَرُ مِن رابِطٍ اهتِمامَها، فَتَحَتْها جَميعًا في نَوافِذَ مُنبَثِقَةٍ.

وَبَعدَ مُرورِ أَقَلَّ مِن عَشْرِ دَقائِقَ مِنَ القِراءَةِ، وَجَدَتْ حَلْقَها يَزدادُ ضيقًا، وَضَرَباتِ قَلبِها تَزدادُ ضَراوَةً.

* * *

اختَلَطَتْ دَقَّةُ بُرْجِ السّاعَةِ العَتيقِ لَدى الدُّكتورِ غَريبٍ، مَعَ رَنينِ جَرَسِ البابِ. رَفَعَ الدُّكتورُ نَظّاراتِهِ يَتَأَكَّدُ مِنَ التَّوقيتِ، التاسِعَةُ مَساءً، هذا لَيسَ ميعادًا اعتادَ فيهِ الزِّيارَةَ. تَرَكَ ما كان يُسَجِّلُهُ عَلى الحاسوبِ، وَقامَ يَفتَحُ البابَ.

"نَيْروزُ!"، كانَتْ دَهْشَتُهُ عَظيمَةً. "السَّلامُ عَلَيكَ دُكتورُ غَريبُ". رَدَّ السَّلامَ وَهُوَ يُغالِبُ تَساؤلاتِهِ، "خَيرًا يا نَيْروزُ، هَل كُلُّ شَيءٍ عَلى ما يُرامُ؟".

جَلَسَتْ إلى أَقرَبِ مَقعَدٍ، وَهِيَ تَختَلِسُ النَّظَرَ لِغُرفَتَينِ، بابُهُما مُوارَبٌ... رَغمَ الضَّوءِ الخافِتِ أَمكَنَها تَمييزُ عَدَدٍ قَليلٍ مِنَ القَواريرِ وَالأَجهِزَةِ المَعمَلِيَّةِ: "الحَمدُ لِلّهِ، جَميعُنا بِخَيرٍ".

"وَسَبَبُ الزِّيارَةِ..."، قالَ يَستَحِثُّها عَلى الكَلامِ. قالَتْ: "أَرَدتُ الاستِعلامَ مِن حَضْرَتِكَ عَن بَعضِ النِّقاطِ، وَلَم أُرِدْ أَن تَعلَمَ ماما بِذلِكَ".

قالَ بِحَذَرٍ: "مَعْنى ذلِكَ أَنَّها غَيرُ عالِمَةٍ بِقُدومِكِ إلى هُنا؟". أَومَأَتْ بِرَأسِها. أَشارَ إلى حُجرَةِ مَكتَبِهِ: "حَسَنًا، فَلْنَتَحَدَّثْ بِالدّاخِلِ، عَلى أَلّا يَزيدَ ذلِكَ عَلى عَشْرِ دَقائِقَ؛ كُنتُ في خِضَمِّ عَمَلٍ كَما تَرَيْنَ".

أَومَأَتْ بِرَأسِها، فَتَقَدَّمَها إلى حُجرَتِهِ، وَنَيروزُ خَلفَهُ.

قالَ بَعدَما استَوى في مَجلِسِهِ: "خَيرًا إذَنْ؟"

قالَتْ: "حينَما كُنتَ بِالخارِجِ قَبلَ عامَينِ، لِماذا صَدَرَ بِحَقِّكَ حُكمٌ بِسَحْبِ صِفَتِكَ العِلميَّةِ، وَتَرْحيلِكَ مِن تِلكَ الدَّولَةِ؟".

أَجفَلَ الدُّكتورُ غَريبٌ، بَعدَ دَقيقَةٍ تَمتَمَ: "أَيُّ دَولَةٍ؟".

قالَتْ: "أَعذُرُ حَضرَتَكَ في سُؤالِكَ، فَقَد جَرى ذلِكَ في ثَلاثِ دُوَلٍ".

اتَّسَعَتْ عَيْنا الدُّكتورِ غَريبٍ، ثُمَّ لَم يَلبَثْ وَلانَتْ مَلامِحُهُ، وَهُوَ يَبْرُمُ طَرَفَ شارِبِهِ الرَّفيعِ، لِيَقولَ بِصَوتٍ هادِئٍ: "ماذا تُريدينَ يا نَيْروزُ؟".

قالَتْ: "ماما تُخبِرُني دَومًا، أَنْ لَيسَ كُلُّ مَن يَعتَلونَ القِمَّةَ يَستَحِقّونَها بِالفِعلِ، وَأَنَّ ثَمَّةَ أَضعافَ أَضعافِهِم يَستَحِقّونَ الوُصولَ وَالتَّرَبُّعَ عَلَيها وَلكِنَّهُ الحَظُّ، الَّذي قَد لا يُحالِفُ الجَميعَ".

ظَلَّ الدُّكتورُ عَلى صَمْتِهِ، تابَعَتْ: "مَعَ الاعتِرافِ بِعَبقَرِيَّةِ وَسَبْقِ اكتِشافِكَ ماذا كانَ هَدَفُكَ مِن كُلِّ ذلِكَ؟!".

اكْتَفى غَريبٌ بِالتَّحْديقِ إِلَيها، تابَعَتْ: "أَمامَ أَماراتِ ذَكائِكَ لا أَعتَقِدُ أَنَّهُ المالُ، وَلا أَستَسيغُ أَيضًا أَن تَموتَ كُلُّ هذِهِ الأَعدادِ لِمُجَرَّدِ إِقرارِ العالَمِ بِعَبقَرِيَّتِكَ!".

مَضَتْ فَترَةُ صَمتٍ، قَبلَ أَن يُغَمغِمَ: "هَل تَظُنّينَ أَنَّ الطُّفَيْلِيّاتِ الَّتي سَيطَرَتْ عَلى النّاسِ في الفَترَةِ الماضِيَةِ، هِيَ كُلُّ شَيءٍ؟!

إِنَّهُ اختِراعٌ بِدائِيٌّ، مُقارَنَةً بِما أَوشَكتُ عَلى الانتِهاءِ مِنهُ الآنَ".

ارتَبَكَتْ نَيْروزُ. لَم يَبْدُ أَنَّها أَدرَكَتْ مَغْزى عِبارَتِهِ، وَيَبْدو أَنَّهُ حَدَسَ ذلِكَ فَتَراجَعَ بِظَهرِ مَقعَدِهِ لِلوَراءِ، وَقالَ: "حَسَنًا! هَل تَعلَمينَ الفَرقَ بَينَ الذَّكاءِ الاصطِناعِيِّ وَتَعَلُّمِ الآلَةِ؟".

ابتَلَعَتْ نَيْروزُ ريقَها، اختَلَسَتْ نَظرَةً مِن ساعَةِ يَدِها، وَقالَتْ: "لا يُفْتى وَمالِكٌ في المَدينَةِ!".

ابتَسَمَ ابتِسامَةً باهِتَةً، وَقالَ: "الذَّكاءُ الاصطِناعِيُّ هُوَ خُوارِزمِيّاتٌ وَضَعَها إِنسانٌ تَتَضَمَّنُ عَدَدًا مِنَ الاحتِمالاتِ تُطَبِّقُها الآلَةُ فيما يُواجِهُها مِن حالاتٍ. وَأَيُّ مَسأَلَةٍ تَخرُجُ عَمّا هوَ مُبَرْمَجٌ لَها تَتَجَمَّدُ، وَلا تُبْدي فِعلًا. أَمّا تَعلُّمُ الآلَةِ، فَهُوَ يَسمَحُ لِلحاسوبِ بِالتَّعَلُّمِ عَن طَريقِ التَّجرِبَةِ وَالخَطَأِ عَبْرَ تَجارِبِ مُحاكاةٍ، تُتيحُ لَهُ الوُصولَ إِلى أَفضَلِ طَريقَةٍ لِلتَّفاعُلِ مَعَ المُؤَثِّراتِ المُحيطَةِ".

وَلَمَعَتْ عَيناهُ: "وَهذا ما طَبَّقتُهُ. لَيسَ عَلى الحَواسيبِ، وَلكِن عَلى أَنواعٍ مُنتَقاةٍ مِنَ الطُّفَيْلِيّاتِ". اضطَرَبَتْ نَيْروزُ، قائِلَةً:



"دُكتورُ غَريبُ، إنْ كانَ ذلِكَ لِخِدمَةِ النّاسِ، فَقَد تَظْفَرُ بِـ "نوبِلَ" لِقاءَ عَبْقَريَّتِكَ، وَإنْ كانَ عَكْسَ ذلِكَ، فَتِلـ ..."، وَبَتَرَتْ عِبارَتَها أَمامَ انفِجارٍ مُدَوٍّ في الخارِجِ!

انْكَمَشَ غَريبٌ في مَقعَدِهِ، وَقَد فارَتِ الدِّماءُ مِن وَجهِهِ، فيما انتَفَضَتْ نَيْروزُ بَعدَما أَفلَتَتْ مِنها صَرْخَةٌ مَبتورَةٌ. غَمَرَ المَكانَ رائِحَةُ خَشَبٍ مُحتَرِقٍ.

سَمِعا وَقْعَ خُطُواتٍ تَقتَرِبُ، تَزايَدَتْ تَعابيرُ الهَلَعِ عَلى وَجْهِ الدُّكتورِ وَما يَدْري إلّا وَوَجَدَ آخِرَ شَخصٍ يَتَوَقَّعُهُ يُطِلُّ عَلَيهِ... "أَلْتشين أوزغول".

كانَتْ بِنَفسِ طَلَّتِها، صَهْباءَ، شَعرُها مُنسَدِلٌ إلى جانِبَيْ وَجهِها، تَرمُقُهُما بِنَظَراتٍ مُستَهتِرَةٍ.

حَدَّقَتْ نَيْروزُ في الخِنْجَرِ المُسَنَّنِ الحَوافِّ في يَدِها، لَمَحَتْ عَدَدًا مِنَ الرُّضوضِ وَالكَدَماتِ في وَجهِها وَعُنُقِها، وَبادَرَتْهُ "أَلْتشين": "ما بالُكَ جاحِظَ العَينَينِ هكَذا، كَأَنَّما رَأَيتَ شَيطانًا؟"، وَأَطلَقَتْ ضِحْكَةً جَذِلَةً، "أَم تَظُنُّني لَقيتُ مَصْرَعي داخِلَ العَنبَرِ؟".



كانَ غَريبٌ فاغِرًا فاهُ، فَتَغَيَّرَتْ نَبْرَتُها إلى اللُّطْفِ الشَّديدِ: "الآنَ، تُخبِرُني بِمَكانِ مَعمَلِكَ السِّرِّيِّ، أَو أَتَسَلّى أَوَّلًا بِتَعذيبِكَ؟".

وَأَعقَبَتْ عِبارَتَها بِقَذْفِ خِنجَرِها، لِيَنغَرِزَ في ياقَةِ مِعْطَفِهِ الأَبيَضِ فَيَجذِبَهُ لِيَستَقِرَّ في ظَهرِ مَقعَدِهِ.

صَرَخَتْ نَيْروزُ، فيما تَقولُ "أَلْتَشين" بِلا مُبالاةٍ: "أَتَعَشَّمُ أَن تَعتَبِرَ مِن هذا التَّهديدِ، الخِنْجَرُ التّالي سَيَستَقِرُّ في مُنتَصَفِ رَقَبَتِكَ".

دارَتْ عَيْنا الدُّكتورِ غَريبٍ، كَالَّذي يُغْشى عَلَيهِ مِنَ المَوتِ، فيما تَسْتَلُّ الصَّهْباءُ خِنْجَرًا آخَرَ، وَتَلتَفِتُ إلى نَيْروزَ: "ما أَسوَأَ حَظَّكِ يا صَبيَّةُ، أَنْ تَحضُري في تَوقيتٍ كَهذا!". انْكَمَشَتْ نَيْروزُ في جِلْسَتِها، أَوشَكَتْ عَلى البُكاءِ. فيما تَقولُ "أَلْتَشين" كَالمُفَكِّرَةِ: "وَلِماذا لا نَستَفيدُ مِن وُجودِها؟ تَقطيعُها أَمامَكَ قَد يُؤتي بِنَتيجَةٍ تَحمِلُكَ عَلى الاعتِرافِ".

وَأَعقَبَتْ قَولَها بِالاقتِرابِ مِنها، جَذَبَتْ يَدَها بِخُشونَةٍ، ثَبَّتَتْها عَلى طاوِلَةٍ بِجانِبِها، غَيرَ مُبالِيَةٍ بِذُهولِهِ، وَأَمسَكَتْ بِمِقبَضِ خِنجَرِها، رَفَعَتْهُ عالِيًا، ثُمَّ هَبَطَتْ بِهِ بِكُلِّ قُوَّتِها.

لِتُطيحَ بِهِ رَصاصَةٌ انْطَلَقَتْ بِصَوتٍ كَقَصْفِ الرَّعْدِ.

الْتَفَتَتِ الصَّهْباءُ لِمُطلِقِ النّارِ، وَعَيناها تَنفُثُ غَضَبًا. كانَ أَمامَها رَجُلٌ يُمسِكُ مُسَدَّسًا بِكِلْتا يَدَيهِ، تَتَصاعَدُ الأَبخِرَةُ مِن فُوَّهَتِهِ، صاحَتْ نَيْروزُ مُلْتاعَةً: "النَّجدَةُ".

وَهَتَفَ غَريبٌ كَالمُستَغيثِ: "حَضْرَةَ الضّابِطِ سَمْعانَ!".

وَبِحَرَكَةٍ عَنيفَةٍ، اقْتَلَعَتْ حَمراءُ الشَّعرِ ساعَةَ نَيْروزَ مِن مِعصَمِها، وَكَوَّرَتْها في يَدِها، وَنَقَلَتْها خَلفَ ظَهرِها، ثُمَّ قَذَفَتْها، نَحوَ الضّابِطِ.

مَعَ استِغرابِهِ لِحَرَكَتِها، رَفَعَ يَدَهُ لِيَتَلَقَّفَها، لَوْلا أَنْ لَمَحَ في اللَّحظَةِ الأَخيرَةِ كُرَةً دائِريَّةً صَغيرَةً مُلصَقَةً بِالسّاعَةِ، تومِضُ بِشَكلٍ مُتَقَطِّعٍ فَوَثَبَ جانِبًا، لِتَتجاوَزَهُ إلى الرَّدْهَةِ الخارِجيَّةِ، وَتَنفَجِرَ في دَويٍّ شَديدٍ.

وَعِندَما عادَ يَلتَفِتُ إِلَيها، وَجَدَها عِندَ رَأسِهِ، وَقَد طَوَّقَتْ عُنُقَهُ بِساعِدِها، فيما تَهبِطُ بِخِنْجَرِها نَحوَ رَقَبَتِهِ.

صَدَّ سَمْعانُ ضَربَتَها بِمِرفَقِهِ. لَم يُبالِ بِما شَعَرَ بِهِ مِن أَلَمٍ وَهُوَ يَلْوي رُسْغَها، حَتّى أَفلَتَتْ خِنْجَرَها، وَقَبلَ أَن يُفَكِّرَ بِالضَّربَةِ المُقبِلَةِ، فوجِئَ بِسَيلٍ مِنَ الضَّرَباتِ وَالرَّكَلاتِ تَتَفَجَّرُ في صَدرِهِ وَوَجهِهِ وَجانِبَيْهِ. رَغمَ صَرَخاتِ الوَجَعِ بِجَسَدِهِ اجتاحَهُ غَيْظٌ عَظيمٌ، فَاندَفَعَ ناحِيَتَها بِجَسَدِهِ لِيَأخُذَها بِقُوَّةِ اندِفاعِهِ، وَيَرْتَطِما بِالحائِطِ المُقابِلِ في عُنفٍ شَديدٍ.

في هذِهِ اللَّحظَةِ، هَبَّ الدُّكتورُ غَريبٌ، كَما لَو تَحَرَّرَ مِن جُمودِهِ مُحاوِلًا استِغلالَ هذِهِ الفَوْضى، لِيَعْدُوَ فارًّا مِنَ الغُرفَةِ، لَوْلا أَن شَهِقَ فَجأَةً بِقُوَّةٍ!

وَمِن مَوقِعِ نَيْروزَ، المُختَبِئَةِ تَحتَ المَكتَبِ، لَمَحَتِ الدُّكتورَ يَهبِطُ بِجَسَدِهِ لِيَرتَطِمَ بِالأَرضِ وَقَدِ الْتَوَتْ عُنُقُهُ بِزاوِيَةٍ حَرِجَةٍ، فيما غاصَ بِظَهرِهِ - حَتّى المِقْبَضِ- أَحَدُ خَناجِرِ الصَّهْباءِ.

في هذِهِ اللَّحظَةِ، كانَ سَمْعانُ يُحاوِلُ مُقاوَمَةَ الشُّعورِ بِالدُّوارِ، بَعدَما حَطَّمَتْ "أَلْتشين" بُرْجَ السّاعَةِ العَتيقَةِ فَوقَ رَأسِهِ.

نَيْروزُ الجاثِيَةُ تَحتَ المَكتَبِ، كَبَحَتْ صَرخَتَها لِمَرْأى جُثَّةِ الدُّكتورِ غَريبٍ.

بِحَرَكَةٍ مَذْعورَةٍ، تَراجَعَتْ لِتَخرُجَ مِن ناحِيَةِ مَقعَدِهِ خَلفَ المَكتَبِ، فَجأَةً لَمَحَتْ أَحَدَ أَدراجِ مَكتَبِهِ مُوارَبًا، سَحَبَتِ الدُّرْجَ، لِتَرى ما جَعَلَ عَقلَها يَفورُ أَمَلًا.

كانَ سَمْعانُ يَصُدُّ بِصُعوبَةٍ ضَرْبَةً أُخرى، مُتَراجِعًا لِلوَراءِ، عِندَما تَعَثَّرَ بِجُثَّةِ غَريبٍ، لِيَقَعَ عَلى ظَهرِهِ...
وَكانَ هذا كُلَّ ما تُريدُهُ، لِتُسَدِّدَ خِنْجَرَها نَحوَ قَلبِهِ مُباشَرَةً.

لَوْلا أَنِ ارْتَجَّ جَسَدُها بِعُنفٍ، لِتَجْحَظَ عَيْناها بِشِدَّةٍ، ثُمَّ تَخِرَّ فاقِدَةً الوَعْيَ. رَفَعَ سَمْعانُ رَأسَهُ، لِيَجِدَ نَيْروزَ واقِفَةً بِارْتِباكٍ، وَفي يَدِها صاعِقٌ كَهرَبائِيٌّ، كانَتْ لا تَزالُ تَضغَطُ عَلى زِرِّ تَشغيلِهِ.

وَأَلْقى الضّابِطُ رَأسَهُ لِلوَراءِ، مُطلِقًا زَفيرًا طَويلًا، وَكَأَنَّما تَخَلَّصَ أَخيرًا مِن حِمْلٍ ثَقيلٍ.

* * *

"الخِتامُ"

صَفَّقَتْ ديمَةُ بِحَرارَةٍ في جِلسَتِها بِالصَّفِّ الأَوَّلِ، جِوارَ كِبارِ القِياداتِ الأَمنِيَّةِ، بَعدَما أَتى وَزيرُ الدّاخِلِيَّةِ عَلى اسمِ ابنَتِها، كَأَحَدِ أَكبَرِ الأَسبابِ في حَلِّ لُغزِ ضَحايا الطُّفَيْلِيّاتِ، وَإِلْقاءِ القَبضِ عَلى أَطرافِ هذِهِ القَضِيَّةِ. لَم يَمنَعْها ذلِكَ مِنَ الهَمْسِ في أُذُنِ نَيْروزَ الجالِسَةِ إِلى يَسارِها: "مَسأَلَةُ ذَهابِكِ إِلى الدُّكتورِ غَريبٍ، دونَ إِعلامي، لَم يَمْضِ بَعدُ أَوانُ مُحاسَبَتِكِ عَلَيها".

قالَتْ نَيْروزُ كَالمُعتَرِضَةِ: "أَعلَمُ أَنَّ ما سَأَقولُهُ لَيسَ مُبَرِّرًا، لكِنَّكِ ما كُنتِ لِتَسْمَحي لي بِالذَّهابِ!".

زَوَتْ ديمَةُ ما بَينَ حاجِبَيْها، فيما تَستَطرِدُ ابنَتُها: "وَمَعَ ذلِكَ، لَم أَذهَبْ إِلّا بَعدَما أَخبَرتُ الضّابِطَ سَمْعانَ بِوِجْهَتي. صَحيحٌ لَم أُخبِرْهُ عَن سَبَبِ ذَهابي، لكِنّي رَجَوتُهُ أَن يَكونَ في الجِوارِ. وَإِنْ لَم أَنزِلْ مِن مَكتَبِ الدُّكتورِ غَريبٍ في الميعادِ الَّذي حَدَّدتُهُ لَهُ، فَلْيَصعَدْ لِيَتَبَيَّنَ الأَمرَ".

هَـزَّتْ ديمَـةُ رَأسَـها بِعَـدَمِ رِضًـا، كادَتْ أَن تُعَلِّقَ غاضِبَـةً، لَـوْلا أَن هَمَسَـتْ بِهـا فـي رِقَّـةٍ: "ماما! رَغـمَ أَنَّ مَعمَـلَ غَـريبٍ السِّـرِّيَّ بَقِـيَ مَـجهولًا لِلأَبَـدِ بِسَـبَبِ مَوتِـهِ، إلّا أَنَّ القَضيَّـةَ انتَهَـتْ عَلـى خَيـرٍ، وَتَوَقَّـفَ الـخَطَرُ، وَكُلُّنـا يَتِـمُّ تَكريمُنا الآنَ... أَنـتِ، وَأَنـا، وَالضّابِـطُ سَـمْعانُ. لا أَتَـمَلَّصُ مِـن خَطَئـي، وَلكِـن، أَلا يُمكِنُ تَأجيلُ التَّفْريغِ قَليلًا؟".

وَدونَمـا قَصْـدٍ مِـن ديمَـةَ، وَجَـدَتْ نَفسَـها تُـحيطُ ابنتَهـا بِذِراعِهـا، لِتَضُمَّهـا إلَيها بِحَرارَةٍ.

* * *

ضَـوءُ شاشَـةِ الحاسوبِ يَنعَكِسُ عَلـى وَجـهِ امـرَأَةٍ عَجـوزٍ جـاوَزَتِ السَّـبعينَ. مُنـذُ ثَلاثَ عَشْـرَةَ سـاعَةً، وَهِـيَ -مَعْدومَـةُ الإرادَةِ- لا تَفتُـرُ عَـنِ الانتِقـالِ مِـن حاسـوبٍ إلـى آخَـرَ... جَميعُهـا مُتَّصِلَـةٌ بِقَواريـرَ أُسـطُوانيَّةٍ كَبيـرَةٍ، يُقـارِبُ طولُـها مِئَـةً وَخَمسَـةً وَعِشـرينَ سَـنتيمِترًا، مُنتَصِبَـةً عَلـى مَسافاتٍ مُتَباعِـدَةٍ يَسـبَحُ داخِلَهـا عَـدَدٌ لا يُـحْصى مِنَ العَوالِقِ الدَّقيقَـةِ، في وَسَـطٍ مِـنَ المـاءِ الرّائِقِ.

الـمَرأَةُ لَـم يَكُـنْ يُوجِّهُها بَشَـرٌ، لَـم تَكُـنْ تُنَفِّـذُ تَعليمـاتِ رَئيسِـها، لَـم تَعلَمْ بِالأَصلِ أَنَّـهُ لَقِـيَ مَصْرَعَـهُ، لَـم تَـعِ حَتّـى مـا أَلَـمَّ بِعَينَيْهـا الـحَمْراوَينِ كَالدَّمِ وَهِيَ تَضغَطُ الأَمرَ الأَخيرَ.

الأَمـرُ الَّـذي بِسَـبَبِهِ، صـارَ بِوُسْـعِ مَلاييـنِ الطُّفَيْلِيّـاتِ، بَعـدَ تَـجارِبِ الدُّكتـورِ غَريبٍ، التَّفكيرُ، وَالتَّدبيرُ، وَالتَّحَرُّكُ، بِعَقلٍ جَمعيٍّ واحِدٍ.




النهاية